محمد
سيرة سيكولوجية

بقلم
علي سينا

ترجمة
إبراهيم جركس

الفهرس

(١)
ـ من كان محمد؟

{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} [الضحى: 3- 8][1]

دعونا نبدأ بقصّة محمد. لندخل حياته. من كان وبماذا كان يفكّر؟ في هذا الفصل سنعبر باختصار خلال النقاط البارزة في حياة رجل، يعبده أكثر من مليار شخص حرفياً. في الواقع إنّ الإسلام ليس سوى مذهب محمدي Muhammadianism. حيث يدّعي المسلمون أنهم لا يعبدون أحداً غير الله. وبما أنّ الله لم يكن سوى ذات محمد الثانية، اسمه المستعار، ولعبته الخفية، فعملياً، هم يعبدون محمد. إنّ الإسلام ليس إلا مذهب شخصي لمحمد. سنقرأ كلماته كما وردت في القرآن، والتي زعم أنها كلام الله، وسنراه من خلال عيون أصحابه وزوجاته. سنلقي نظرة على الطريقة التي ظهر بها وتحوّل من واعظ أو مبشّر مغمور ليصبح حاكماً قوياً لكل بلاد العرب خلال عقد واحد من الزمن، وكيف فرّق الناس وقسّمهم من أجل أن يسهل عليه حكمهم، كيف غرس قيم الحقد والعصيان وأيقظ مشاعر البغض لدى الناس لشنّ حروب طاحنة ضدّ الآخرين وكيف لجأ إلى الغزو، الاغتصاب، والاغتيال ليزرع الرّعب في قلوب ضحاياه وإخضاعهم. سنتعلّم الكثير عن إباداته الجماعية وميله للمكر والخداع كاستراتيجية، وهي نفس الاستراتيجية التي يتبعها المسلمون الإرهابيون في الوقت الحاضر. وبعد فهم الشخصية المحمدية سنرى أن الإرهابيين يفعلون بالضبط ما فعله نبيّهم ويقلّدونه في أفعاله وأقواله.

* ولادة محمد وطفولته

في عام 570 للميلاد، وفي منطقة صحراوية تسمّى مكّة في شبه الجزيرة العربية، أرملة ما زالت في سنّ الشباب _آمنة_ تضع مولوداً يعرف فيما بعد باسم "محمد"[2]. وبالرغم من أنّ محمد كان طفلها الوحيد، إلا أنها سلّمته لامرأة بدوية كي ترضعه وتربيه في الصحراء، وذلك عندما كان يبلغ من العمر ستة أشهر فقط.

كانت هناك عادة منتشرة بين النساء العربيات الثريات وهي أن يستأجرن بعض المربيات أو المرضعات من أجل أطفالهنّ. وقد خلّصهن هذا الأمر من عبء الإرضاع والتربية وسمح لهنّ بأن ينجبوا أطفال آخرين مباشرةً. فالأولاد الكثر يعني مكانةً أرفع. لكن لم تكن تلك هي حالة آمنة التي كانت أرملة وأم لطفل وحيد تعتني به وفقيرة. فعبد الله، والد محمد، مات قبل ستة أشهر من ولادة محمد. كما أنّ هذه الممارسات لم تكن شائعة حقاً.

---

[1] عملي هنا ليس حول النصوص المقدّسة في الإسلام، بل قائمة بشكلٍ مباشر عليها. الآية لتي أوردتها هنا مأخوذة من القرآن والحديث. يفترض أنّ القرآن ليس من عمل أيّ إنسان، بل هو كلمة الله المطلقة، من البداية حتى النهاية. الأحاديث قصيرة، حكايات وأقوال مجموعة تتعلّق بمحمد ويعتبرها المسلمون ضرورية جداً من أجل فهم وممارسة دينهم بشكل صحيح. ليس مهمّاً بالنسبة لي هنا مناقشة الأسئلة الكثيرة التي يثيرها القرآن والحديث، أو ترجمتهما إلى لغات أخرى، أو الجدالات القائمة حول الفروقات الدقيقة وغير الملاحظة في تلك النصوص. فبالنسبة لهذا الكتاب، إنّ الآيات التي سأضعها هنا ستتكلّم عن نفسها. وقد أخذتها من أكثر المصادر المتفق على صحّتها بين المسلمين.

[2] حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية (التي لم أقدر على التحقق من أصالتها وصحّتها) أنّ اسم محمّد الأصلي كان "قثم" كما أنه كان يعرف أيضاً باسم "حلبي". إلا أنه قد غيّر اسمه فيما بعد إلى "محمّد = الشخص المحمود" حينما بلغ سنّ الخامسة والثلاثين أثناء هجرته إلى المدينة.

في الواقع خديجة، زوجة محمد الأولى، والمرأة الأغنى في مكّة كلّها، كان لها ثلاثة أولاد من زيجتان سابقتان وحملت أكثر من ستة أطفال بالإضافة إلى محمد. وقد ربّتهم جميعهم بنفسها من دون مساعدة أحد[3].
لماذا ترسل آمنة ابنها الوحيد لتربّيه امرأة أخرى بعيداً عنها؟ هناك معلومات قليلة جداً عن والدة محمد والتي تساعدنا على فهمها وفهم قرارها الذي اتخذته من أجل إبعاد محمد.

هناك معلومة صغيرة مثيرة للاهتمام تسلّط بعض الضوء على تركيبتها النفسية وعلاقتها بطفلها، وهي أنّ آمنة لم ترضع ولدها من صدرها. فبعد ولادته، أعطي الطفل الحديث الولادة إلى ثويبة، جارية عمّه أبو لهب (وهو نفس الرجل الذي لعنه محمد هو وزوجته في سورة المسد) لتهتمّ به. لماذا لم تهتمّ آمنة بابنها ولم ترضعه من صدرها، ولماذا لم يذكر هذا من قبل. جلّ ما يمكننا فعله هو التخمين. هل كانت مكتئبة من واقع أنها أصبحت أرملة في تلك السّنّ المبكّرة؟! هل فكّرت أنّ الطفل كان عائقاً أمام إمكانية الزواج مرّةً أخرى؟

إن حادث وفاة أي شخص في العائلة سيسبب تغيّرات كيميائية في الدماغ يمكن أن تؤدّي إلى الاكتئاب. وهناك عوامل أخرى قد تزيد فرص النساء في المعاناة من الاكتئاب مثل: أن تعيش وحيدة، القلق حول الجنين، المشاكل الزوجية أو المالية والعمر الصغير للأم. كانت آمنة قد فقدت زوجها للتوّ، كانت وحيدة، فقيرة، وصغيرة السّنّ. واعتماداً على ما نعرفه عنها، كانت مرشحاً مثالياً للوقوع في الاكتئاب. قد يتداخل الاكتئاب مع قدرة الأم على توثيق العلاقة مع طفلها. كما أنّ الاكتئاب خلال فترة الحمل يضع الأم في حالة خطر من معاناة حالة عميقة ومستعصية من الاكتئاب بعد الإنجاب (كآبة ما بعد الولادة)[4].

يقول بعض الباحثين أنّ الاكتئاب عند النساء الحوامل قد يكون له تأثيرات مباشرة على الأجنّة. وعادةً ما يصبح الأطفال عصبيين وخمولين. هؤلاء المواليد الجدد قد يكبرون ليصبحوا أولاداً بطيئين في التعلّم، وغير متجاوبين عاطفياً، مع مشاكل في السلوك، كالتصرّفات العدوانية على سبيل المثال[5].

تلقى محمد تربية ونما بين الأغراب. ومع نموّه، أصبح مدركاً أنه لا ينتمي لتلك العائلة التي يعيش في كنفها. ولا بدّ أنه قد تساءل عن السبب الذي دفع أمّه التي أنجبته، والتي كان يزورها مرّتين في العام، بالتخلّي عنه.
حليمة، مرضعة محمد ومربّيته، بعد بضعة عقود روت أنّه في بادئ الأمر في ترغب بأخذ محمد لأنه كان يتيماً ومن أمّ فقيرة لا تملك شيئاً. في النهاية قبلته لأنها لم تجد أي طفل آخر من عائلة غنية. فعائلتها كانت بحاجة ماسّة إلى دخل إضافي حتى وإنّ كان ضئيلاً. هل يعكس هذا الكلام الطريقة التي اعتنت فيها حليمة بالطفل؟ هل شعر محمد بانعدام الحب والعاطفة في منزل العائلة التي ترعاه خلال تلك السنوات الحاسمة من التكوين النفسي للإنسان؟

---

[3] كان لمحمد أربعة بنات وولدان. أمّا أولاده الذكور، فهما القاسم وعبد مِناف (وقد سمّي باسم الإله مِناف) ماتا وهما صغيرا السّنّ. أمّا بناته فقد بلغن سنّ الرشد وتزوّجن، لكنّهنّ جميعهنّ متن وهنّ ما زلن شابات. أمّا ابنته الأهم، فاطمة، كان لها ولدان. وماتت بعد وفاة محمد بستة أشهر.

[4] أظهرت الدراسات أنّ المواليد الجدد الذين جاؤوا من أمّهات يعانين من كآبة ما قبل وما بعد الولادة اللواتي كانت نسبة مستويات الكورتيسول والنوربينفرين عندهنّ، ونسبة الدوبامين منخفضة. فأطفال المجموعة تلك أيضاً كانت لديهم نسبة مرتفعة من النوربينفرين، ونسبة منخفضة من الدوبامين. وتقترح هذه المعطيات أنّ التأثيرات على نفسية المواليد الجدد تعتمد على حالة الكآبة ما قبل الولادة أكثر منها على ما بعد الولادة، لكنّها أيضاً قد تعتمد على مدّة أعراض الاكتئاب.
ncbi.nlm.nih.gov.

[5] www.gaelth.harvard.edu/newsweek/Depression_during_Pregnancy_and_after_0405.htm

أخبرتنا حليمة أنّ محمد كان طفلاً انطوائياً. حيث أن كان ينسحب دائماً إلى عالم خيالي ويتحدّث مع أصدقاء غير مرئيين. هل كان ذلك ردّة فعل لطفل لم يشعر بالحب قط في العالم الحقيقي وخلق عالماً آخر في عقله يستطيع أن يجد فيه الملجأ والحب؟

أصبحت صحّة محمد العقلية والنفسية مصدر قلق بالنسبة لمرضعته التي _عندما بلغ محمد سنّ الخامسة_ أعادته إلى آمنة. لم تكن قد وجدت زوجاً بعد، وكانت تمانع إعادة الطفل إليها، إلى أن أخبرتها حليمة عن سلوك محمد الغريب وأحلامه وخيالاته. يورد ابن إسحاق حديث حليمة مع آمنة ((قال أبن اسحق .. كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله التي أرضعته تحدث .... فلم يبلغ سنتيه (محمد) حتى كان غلاما جعفراً (غليظاً) فكلمنا أمه وقلت لها لو تركت بنيّ عندي حتى يغلظ ... فردته معنا (ثم حدث له شق بطنه فأرجعته حليمة إلى أمه) قالت أمه (آمنة) أفتخوفت عليه الشيطان قالت قلت نعم قالت كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ... فو الله ما رأيت من حمل قط كان أخف عليّ ولا أيسر منه ...)) [السيرة النبوية لأبن هشام باب ولادة رسول الله صلعم ورضاعته.][6]

من الطبيعي جداً بالنسبة للأطفال أن يروا وحوشاً تحت أسرّتهم والتحدّث إلى أصدقاء خياليين. لكنّ حالة محمد قد تكون متفاقمة ومنذرة بالخطر. صرّح زوج حليمة أمام زوجته إحدى المرّات من تخوّفه على الطفل من أن يكون قد لحقه بعض الأذى. وهذه معلومة هامّة جداً. فبعد عدّة سنوات، تحدّث محمّد عن تجربته الغريبة عندما كان طفلاً ((... إذ أتاني رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ بُسِطَت من ذهب مملوءة ثلجاً، فأخذاني فشقّا بطني واستخرجا قلبي فشقّاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثمّ غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه...))[7].
الشيء المؤكّد هو أنّ شوائب العقل لا تظهر كعلقة سوداء في القلب. باستثناء حقيقة أنّ الأطفال خالين تماماً من الذنب، لا يمكن للذنوب أن تزال بعملية جراحية كما أنّ الثلج ليس مادّة معقّمة جيّدة. فالقصّة بكاملها محض خيال أو هلوسة.

اجتمع محمد الآن بأمّه، لكنّ هذا الاجتماع لم يستمرّ طويلاً. فبعد سنة واحدة ماتت آمنة. كما أنه لم يتحدّث معها كثيراً. وعندما غزا محمد مكّة، بعد خمس وخمسين عاماً من وفاتها، زار قبر والدته على الأبواء، مكان بين مكّة والمدينة حيث دُفِنَت وبكى عليها. ثمّ أخبر أصحابه بالتالي ((هذا قبر أمي سألت ربي الزيارة فأذن لي وسألته الاستغفار فلم يأذن لي فذكرتها فرققت فبكيت))[8].
لماذا لم يسمح الله لمحمد بالصلاة على والدته؟ ما الذي فعلته حتى لا تستحقّ المغفرة؟ إلا إذا كنا نؤمن أنّ الله ظالم وغير عادل، فهذا غير معقول ولا منطقي. من الواضح أنّ الله ليس له علاقة بذلك. إنه محمد هو الذي لم

[6] ابن إسحاق (704- 768) مؤرّخ إسلامي، من مواليد المدينة حوالي 85 عاماً بعد الهجرة. من أوائل المؤرّخين الذين دوّنوا سيرة محمد وحملاته وحروبه. فمجموعته من القصص المتعلّقة بمحمد أطلق عليها اسم "سيرة النبي". هذا الكتاب مفقود. إلاّ أنّ الكثير من المؤرّخين نقلوا مادة ابن إسحاق مع التعليق عليها ومن أهمّهم ابن هشام على شكل نصّ منقّح ووافر. ابن هشام، اعترف بأنه حذف بعض القصص عن سابق إصرار والتي كانت تشكّل إحراجاً بالغاً للمسلمين. جزء من تلك القصص المحرجة تمّ إنقاذه من قبل الطبري (838- 923) أحد أهم وأشهر المؤرّخين الفارسيين والمعلّقين على القرآن.

[7] سيرة ابن هشام، 1/166- 167.

[8] طبقات ابن سعد، ص 21. ابن سعد (784- 845) كان مؤرّخاً، وتلميذاً للواقدي. صنّف قصصه في ثمانِ مصنّفات، ومن هنا جاء اسم "طبقات= مصنّفات". الطبقة الأولى يتناول في حيلة محمد (المجلّد الأول)، ثمّ حروبه (المجلّد الثاني)، ثمّ أصحابه من مكّة (المجلّد الثالث)، أصحابه من المدينة (المجلّد الرابع)، أحفاده: الحسن والحسين، ومسلمون بارزون آخرون (المجلّد الخامس)، أتباع وأصحاب محمّد (المجلّد السادس)، أصحابه اللاحقون الهامّون (المجلّد السابع)، وبعض النساء المسلمات في مرحلة مبكّرة (المجلّد الثامن).

يستطع مسامحة أمه، حتى بعد مرور نصف قرن على وفاتها. على الأرجح كانت ذكراها الرّاسخة في ذهنه بأنها امرأة باردة غير قادرة على الحب، لقد كان مستاءً منها وكان يعاني من جروح عاطفية عميقة لم تشفى طوال حياته.

عندها أمضى محمد سنتان في منزل جدّه، الذي رعاه لكونه يتيماً، والذي أغدق على حفيده، الذكرى الوحيدة التي تحمل رائحة ابنه عبد الله، بالحب والحنان غير المشروطين. يكتب ابن سعد أنّ عبد المطّلب منح الولد الكثير من الاهتمام الذي لم يعره لأي أحدٍ من أبنائه[9]. يكتب موير في سيرته المحمدية ((كان الجد يعامل حفيده بالولع المتفرّد. كان هناك بساط يُنشَر في ظلّ الكعبة، وعليه، كان يتّكئ شيخ المسنّين ملتجأً من حرارة الشمس. وحول البساط، لكن على مسافة منه احتراماً ومهابةً، كان يتحلّق حوله أولاده. كان محمد متعوّداً على الركض واللعب قرب الجد، وكان يحاول الاستيلاء على مقعده بشكل غير لائق. كان أولاده يحاولون إبعاد الصغير، لكنّ عبد المطّلب يتدخّل قائلاً: "دعوا صغيري وشأنه". ثمّ كان يمسّد له على ظهره، وهو مبتهج في مراقبة ثرثرته الطفولية. كان الولد لا يزال في رعاية مربّيته، بركة، لكنّه كان يتركها أحياناً، ويركض مسرعاً إلى منزل جدّه، حتى عندما يكون وحيداً أو نائماً))[10].

تذكّر محمد المعاملة التفضيلية الجيّدة التي تلقّاها من جدّة عبد المطّلب. ثم عن طريق رشّ المزيد من التوابل عليه في خياله، قال لاحقاً أنّ جدّه كان يقول: "دعوه وشأنه فله قدر عظيم، وسيرث مملكة" كما أنه كان يقول لبركة "حذار أن تدعيه يقع بين أيدي اليهود والنصاري، فهم يسعون وراءه، وسيؤذونه!"[11]. على أيّة حال، لم يذكر أحد هذه التعليقات، إذ لا أحد من أعمامه كان قد تقبّله عندما بدأ بمزاعمه، ما عدا حمزة، التي كان يبلغ من العمر مثله تماماً. عبّاس أيضاً انضمّ إلى جانبه، ولكن فقط بعد أن ظهر محمد وسطع نجمه وكان على أبواب مكّة يتجهّز لغزوها.

للأسف، لم يكن القدر رحيماً مع محمد. فبعد سنتين فقط من انتقاله للعيش في كنف جدّه، مات البطريرك الكبير عن عمرٍ ناهز 82 عاماً وأصبح الولد في رعاية عمّه أبو طالب.
شعر الطفل اليتيم بمرارة شديدة جرّاء خسارته لجدّه. وعندما خرج في جنازة جدّه الذي دفن في منطقة الحجون، كان يبكي طوال الطريق، وبعد عدّة سنوات، احتفظ بذكرى غالية جداً له.

أدّى أبو طالب الأمانة بصدق. ((كان ولعه بالفتى يساوي ولع عبد المطّلب)) يكتب موير ((فقد جعله ينام في سريره، ويأكل بجانبه، وكان يأخذه برفقه أينما ذهب. وهذه استمرّ بهذه المعاملة اللطيفة حتى خرج محمد من عهد العجز الطفولية))[12] يقتبس ابن سعد عن أستاذه الواقدي الذي روى لنا أنّ أبو طالب، بالرغم من فقره، اعتنى بالفتى اليتيم وأحبّه أكثر من أبناءه هو.

---

[9] طبقات، المجلّد الأول، ص 107.

[10] حياة محمد، سير وليام موير.
The Life Of Muhammad. By Sir. William Muir. London, 1861. Volume II Ch. 1. P. XXVIII

[11] الواقدي، ص 22.

[12] طبقات، المجلّد الأوّل، ص 108.

بسبب هذه الصّدمات النفسية القاسية والمدمّرة التي تعرّض لها محمد أثناء طفولته، كان محمد يخشى فيها أن يترك وحيداً ولا بدّ أنه قد عانى من جروح ورضوض نفسية. وهذا واضحٌ جداً من حادثة حصلت له عندما كان بعمر الثانية عشرة. في أحد الأيام، قرّر أبو طالب أن يذهب فيها إلى سوريا برحلة عمل. وكان ينوي أن يترك الولد في المنزل ((لكن عندما كانت القافلة تتجهّز للرحيل، وأبو طالب يكاد يمتطي ناقته، كان ابن أخيه متعلّقاً به جداً وحزيناً على فراقه الطويل. تحرّك أبو طالب، وأخذ الولد معه))[13]. هذه الدّرجة من التعلّق بعمّه هي إشارة إلى أنّ محمد كان في حالة خوف مستمرّ من خسارة أحبّائه.

بالرغم من هذه المودّة العظيمة، وبالرغم من أنّ أبو طالب ظلّ مدافعاً عنه خلال حياته _كان يدافع عنه أكثر من أولاده_ أثبت محمد أنه شخص ناكر للمعروف في النهاية. عندما كان عمّه العجوز على فراش الموت، زاره محمد وجلس بجانبه. كان جميع أبناء أبو طالب حاضرين. كان أبو طالب دائم التفكير بحالة ابن أخيه، لذلك كان طلب أبو طالب الأخير من إخوته هو حماية محمد ورعايته الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ من العمر 50 عاماً. وقد وعدوه بأن يقوموا بذلك، ومن ضمنهم أبو لهب، الذي لعنه محمد. وبعد ذلك طلب محمد من عمّه التحوّل إلى الإسلام.

أدرك محمد أنّ أتباعه كانوا ودعاء أغلب الأحيان ومتواضعين. ولرفع سمعته احتاج إلى شخص ما من القوم يعتنق دينه. يروي ابن إسحاق أنّه كلّما جاءت مجموعة من الرجال لزيارة مكّة، أو أنّ النبي قد سمع بمجيء أيّ أحد ذو شأن وأهمية إلى مكّة، كان يذهب إليهم ويعرض عليهم رسالته[14]. ويخبرنا المؤرّخون أيضاً أنّ محمد ابتهج جداً عندما أسلم أبو بكر وعمر وانضمّوا في صفّه. إنّ تحوّل أبو طالب إلى الإسلام كان سيرفع من مكانة محمد بين أعمامه وبين أبناء قريش، القبيلة التي استقرّت في مكّة وحماة الكعبة، وسيمنحه ذلك مصداقية ومنزلة رفيعة كان يتوق للحصول عليها. إلا أنّ الرجل المحتضر ابتسم وقال بأنه يفضّل الموت على دين آبائه وأجداده. وبهذا، ومع تلاشي آماله وأحلامه، خرج محمد من غرفة عمّه يدمدم ((كنت أريد الصلاة من أجله، لكنّ الله منعني عن ذلك))[15].

من الصعب جداً التصديق أنّ الله سيمنع نبيّه من طلب الرحمة والمغفرة للرجل الذي ربّاه وحماه طوال حياته، وضحّى بالكثير من أجله. إنّ هذا الأمر سينزل الله إلى المستوى الذي يجعله غير جدير بالعبادة. إنّ التضحيات التي قام بها أبو طالب وعائلته من أجل محمد كبيرةٌ جداً. هذا الرجل، بينما كان مرتاباً من ادّعاءات محمد، وقف كالصخرة في وجه المعارضين، وحماه من أي أذى محتمل، ولمدّة 38 عاماً بقي مؤيّداً مخلصاً لابن أخيه. وبالرغم من أنّ أبو طالب رفض التحوّل إلى الإسلام، إلا أنّ محمد شعر بأنه مرفوض لدرجة أنه لم يستطع أن يسمح لنفسه بالصلاة على عمّه وهو على فراش موته. يخبرنا البخاري ((عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: (لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه أم دماغه).))[16]

---

[13] حياة محمد، سير وليام موير. المجلّد الثاني، الفصل الأول، ص IIIXXX.

[14] سيرة ابن إسحاق، ص 195.

[15] حياة محمد، موير. المجلّد الثاني، ص 195.

[16] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنّة والنار، 6196.

كانت فترة شباب محمد فترة خالية من الأحداث نسبياً وليس فيها شيئاً يذكر، ولم ينقل كتّاب السيرة الكثير عن تلك الفترة. كان خجولاً، هادئاً ومنعزلاً اجتماعياً. وبالرغم من حقيقة أنّ عمّه قد بالغ في حمايته وإفساده، ظلّ محمد حسّاساً تجاه وضعه كيتيم. ذكريات طفولته الوحيدة والخالية من الحب والحنان طاردته لبقية حياته.
مرّت السنوات. ظلّ محمد فيها وحيداً، منعزلاً في عالمه الخاص، بعيداً عن أصحابه. يقول البخاري[17]أنّ محمداً كان ((أشدّ حياءً من العذراء في خدرها))[18] وقد ظلّ على حاله هذه لبقية حياته، خجول وغير آمن، وهذا شيء حاول التعويض عنه برفع نفسه عالياً، وبالتفاخر والتفخيم الذاتي.
محمد لم ينخرط في أي مناسبة هامّة. وفي الوقت الذي كان فيه يرعى الأغنام، كانت تلك المهنة تعتبر مهنة الضعفاء وأقل الناس مكانةً. كان الأجر ضئيلاً وكان يعتمد على عمّه الفقير لإعالته.

[17] أبو عبد الله البخاري (810- 870) جامع للأحاديث وما يعرف أيضاً بالسُنّة (مجموعة أقوال وأفعال محمد). كتابه (الصحيح) يعتبر ثاني أهم كتاب إسلامي. فقد أمضى ست عشر عاماً في جمعه وتصنيفه، وانتهى إلى تصنيف 2602 حديث صحيح. إنّ معاييره للقبول بمجموعة الأحاديث كانت من بين المعايير الأكثر صرامةً بين علماء الأحاديث، ولهذا يطلق على كتابه عنوان "صحيح البخاري". وكان هناك باحث آخر هو أبو الحسين مسلم وأبو داود الذي قام بعمل شبيه بعمل البخاري وجمع عدداً من الأحاديث التي تعتبر أنها صحيحة وأصيلة. صحيح البخاري، صحيح مسلم، وسُنَن أبو داوود معترف بها من غالبية المسلمين، وخصوصاً السُنّة، كمكمّل للقرآن.

[18] صحيح البخاري، كتاب الأدب،5751.

(٢)
زواج محمد بخديجة

أخيراً، وفي سنّ الخامسة والعشرين، أمّن أبو طالب لابن أخيه عملاً جيداً، ليعمل كوصيّ موثوق عند امرأة غنيّة تعمل في التجارة، قريبة، تدعى خديجة. كانت خديجة تاجرة ناجحة بعمر الأربعين سنه، جميلة وأرملة. سافر محمد في رحلة واحدة إلى سوريا تحت خدمتها، باع بضاعتها واشترى ما أمرته أن يشتريه لها. وخلال عودته، وقعت خديجة في حبّ محمد الشاب، وعن طريق جارية لها، عرضت الزواج عليه.

كان محمد رجلاً محتاجاً، من الناحية الاقتصادية والعاطفية. فبالنسبة له كان الزواج بخديجة أشبه بالنعمة. ففيها، يمكنه أن يجد الأم التي فقدها في طفولته، بالإضافة إلى الأمان والاستقرار المالي الذي سيعفيه من العمل مجدّداً.
كانت خديجة أكثر من راغبة في تلبية كافة حاجات أزواجها الشبّان. لقد وجدت سعادتها في العطاء، الرعاية، والتضحية الذاتية.

لم يكن محمد مولعاً بالعمل. وفضّل الانسحاب من العالم والغرق في بحر أفكاره. وحتى عندما كان طفلاً، كان يتجنّب صحبة الأولاد الآخرين ولم يكن يلعب معهم. كان يقضي وقته وحيداً في مزاج جدّي. لم يكن يعرف كيف يمرح أو يكون سعيداً. ولهذا السبب، واتباعاً لعادات نبيّهم، لا يحبّ المسلمون الضحك ويعتبرونه عيباً أو حراماً. في عالمه الخيالي المنعزل، لم يكن محمد طفلاً منبوذاً ومكروهاً، كما كان يرى نفسه خلال السنوات الأولى من طفولته، بل كان يرى نفسه محبوباً، محترماً، مبجّلاً، ومهاباً حتى. فعندما أصبح الواقع مريراً وصعب الاحتمال وكانت مشاعر الوحدة تجتاحه، كان سيهرب إلى عالم الخيال، حيث يمكنه أن يكون أي شخص أو أي شيء يريده. لا بدّ وأنه اكتشف هذا العالم البديل في سنّ مبكّرة جداً، عندما كان يعيش في منزل مرضعته وعائلتها، ويقضي أياماً طوال من الوحدة في الصحراء الخاوية. هذا العالم الخيالي والشاعري المريح عالم الأحلام كان سيظلّ ملجأه مدى حياته. لقد أصبح حقيقياً بالنسبة إليه كالعالم الواقعي، لكنّه عالم أفضل وأسعد. كان محمد يترك زوجته في المنزل لوحدها مع أولادهما التسعة لينسحب إلى الكهوف بالقرب من مكّة ويقضي أياماً منعزلاً بنفسه عن العالم، غارقاً في أفكاره الخاصّة وأحلام اليقظة الحلوة.

* تجربة باطنية

في أحد الأيام، في سنّ الأربعين، بعد أن قضى عدّة أيام في الغار لوحده، دخل محمد في تجربة غريبة. بدأ يشعر بانكماش إيقاعي في العضلات، آلاماً معوية، وكأنّ أحداً ما يضغط عليه بعنف، تحزّم (نخز في العضلات)، حركات لاإرادية للرأس والشفتين، تعرّق، وتسرّع في ضربات القلب. في حالة الهيجان هذه سمع أصواتاً وشهد خيالاً شبيهاً بالشبح.
ركض مرعوباً عائداً إلى منزله، كان يرتجف ومبلّلاً بعرقه، ((دثّريني يا خديجة، دثّريني)) قال متوسّلاً زوجته ((آه يا خديجة، ما الذي يحدث لي؟)) وأخبرها بكل شيء حصل معه ثمّ قال ((أخاف أن يكون قد حصل معي مكروه)). اعتقد أنّ عفريتاً ما قد مسّه. طمأنته خديجة وأخبرته ألا يخاف، وأنه قد رأى ملاكاً، وأنه قد تمّ اختياره ليكون نبياً.

بعد لقاءه بالشخصية الشبحية، التي عرّفته بها زوجته على أنها جبرائيل، اقتنع محمد بمنزلته النبوية. وقد ناسبته بشكل ممتاز حيث أنها حقّقت رغبته الطموحة. ثمّ بدأ بالتبشير لرسالته.

ماذا كانت رسالته تلك؟ كانت الرسالة هي أنه أصبح رسولاً وعلى الناس أن يؤمنوا به. ونتيجة لذلك عليهم أن يحترموه، يحبّوه، يطيعون أوامره، وحتى يخافون منه. وبعد ثلاث وعشرين عاماً من التبشير، بقيت لبّ رسالة محمد كما هو. رسالة الإسلام الأساسية، هي أنّ محمد رسول ويجب على الناس طاعته. أمّا غير ذلك، فليس هناك أي رسالة أخرى. والفشل في الاعتراف به يورث العقاب في هذه الدنيا والعالم الآخر. فالتوحيد، الذي هو الحجّة الرئيسية للإسلام، لم يكن في الأصل جزءاً من رسالة محمد.

بعد أن عنّف المكّيين لسنوات عديد وأهان دينهم وآلهتهم، رفض المكّيون التعامل بأي شكل من الأشكال مع محمد وأتباعه، الذين تبعاً لأوامره، هاجروا على الحبشة. في النهاية، ولاسترضاء المكّيين، عرض عليهم محمد تسوية. يروي لنا ابن سعد في طبقاته ((رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه كفاً عنه فجلس خالياً فتمنى فقال ليته لا ينزل علي شيء ينفرهم عني وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً مجلساً في نادٍ من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم و{النجم إذا هوى} حتى إذا بلغ أرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان كلمتين على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد، وسجد القوم جميعاً))[19]
تلك الكلمات أسرّت القرشيين وكفّوا عن مقاطعتهم لمحمد وعدائيتهم. وصلت هذه الأخبار إلى المسلمين في الحبشة الذين عادوا على مكّة بسرعة وهم سعداء.

بعد فترة قصيرة، أدرك محمد أنّه من خلال الاعتراف ببنات الله كإلهات فإنه قد أساء لموقفه بصفته الوسيط الوحيد بين الله والبشر، وجعل دينه الجديد متميزاً عن باقي الديانات الوثنية وبالتالي عاطلاً. لذا انسحب وتراجع عن موقفه واعترافه ببنات الله وقال أنّ الآيتان كانتا آيات شيطانية.ثمّ استبدلهما بالآيات التالية {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [النجم: 19- 22] ومعناها، كيف تجرؤون على الاعتراف ببنات الله، أتقولون أنّ لله بناتاً، وأنّ لكم أولاداً ذكوراً؟ فالنساء قاصرات وقليلات العقل وغير لائقات ليكنّ بنات الله. هذه القسمة غير منصفة!!!!!!!!!!!!.

بعض أتباع محمد تخلّوا عنه بسبب هذه الحادثة. ولتبرير هذه البلبلة وإرجاع ثقة الأتباع به، زعم أنّ جميع الأنبياء الآخرين كانوا معرّضين لغواية الشيطان، الذي أغواهم وألهمهم بآيات شيطانية شبيهة بالآيات الإلهية. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} [الحج: 52- 53]

كتب محمد هذه الآيات لأنّ الكثير من أتباعه كانوا قد تخلّوا عنه بعد أن أدركوا بأنه كان يختلق القرآن ويصيغه كما يريد وبما يقتضيه الموقف. إنّ الذي تقوله هذه الآيات جوهرياً، إذا أردنا التحدّث بصراحة ووضوح، هو أنك عندما تمسك بي أنا، أو محمد، أو أي أحمق وأنا أرتكب هفوة، فإنه سيظلّ خطأك أنت لأنّ قلبك مريض.
بعد مرور ثلاثة عشر عاماً، لم يؤمن به أكثر من سبعين أو ثمانين شخص. زوجته، التي لم تعمل على تلبية حاجاته فحسب، بل احترمته أيضاً، بجّلته وألّهته على نحوٍ متذلّل، كانت هي أول من اتبعه. وموقفها الاجتماعي أقنع بعض الناس ذوي المكانة المتوسّطة كابي بكر، عثمان، وعمر لينضمّوا إلى قضيّته. فيما عدا هذه القلّة، أي باقي أتباع محمد كانوا مجموعة من العبيد وبعض الشبّان الساخطين.

[19] طبقات، المجلد الأول، ص 191.

*** أسطورة الاضطهاد**

لقي نداء محمد في مكّة آذاناً صمّاء واستقبل باللامبالاة. كان المكّيون متسامحين _كغالبية البشر من غير المسلمين اليوم_ مع كل الديانات. كان الاضطهاد الديني في تلك الأراضي غير شائع. المجتمعات التي تنتشر فيها العقائد التعدّدية هي ذات طبيعة متسامحة بشكلٍ عام. إلا أنّ المكّيين كانوا قد أهينوا عند أهان محمد آلهتهم، لكنهم لم يصيبوه بأي أذى.

عندما أهان محمد آلهة الوثنيين أصبح غير محمول، وقاطعه المكّيّون هو وأتباعه. لقد قرّروا ألا يبيعوا أي بضائع لهم وألا يشتروا منهم أي شيء. هذه المقاطعة استمرّت على الأرجح سنتين كاملتين. كان الأمر صعباً على المسلمين، لكنّ المقاطعة ليست مثل القتل. لذلك، لا يمكن أن نسمّي هذه المقاطعة "اضطهاداً". الاضطهاد هو ما فعله المسلمون بالبهائيين. آلاف البهائيين الأبرياء عُذّبوا وذُبِحوا بلا أدنى رحمة في إيران، خلال القرنين الماضيين، ومع ذلك لم يهينوا الإسلام قط، لا نبيّه ولا كتابه المقدّس.

شجّع محمد أتباعه على ترك مكّة ومغادرتها. وقد أغضب ذلك أولئك الذين تحوّل أبنائهم وعبيدهم إلى الإسلام. تمّ الإمساك ببعض العبيد وهم يحاولون الهرب فضربوا. وذلك لم يكن طبعاً اضطهاداً دينياً. كان المكّيّون ببساطة يحاولون حماية ما كانوا يعتبرونه ملكهم. على سبيل المثال، عندما تمّ الإمساك ببلال، ضربه سيّده أميّة ووضع عليه الأغلال. دفع أبو بكر فديته وأعتقه. ضُرِب بلال لأنه حاول الهرب، مسبباً بذلك خسارة مالية كبيرة لسيده وليس لفائدته. هناك أيضاً روايات عن مسلمين ضُرِبوا من قبل عائلاتهم أو أفراد من عائلاتهم لأنهم تحوّلوا إلى الإسلام. يروي أحد الأحاديث أنّ عمر، قبل أن يتحوّل بدوره، ربط أخته محاولاً إجبارها على ترك الإسلام[20].

كان عمر رجلاً عنيفاً جداً وصارماً، قبل وبعد تحوّله إلى الإسلام. هذه الروايات يصعب تصنيفها كاضطهاد ديني. إنّ مفهوم الفردانية Individualism في الشرق الأوسط هو مفهوم غريب وغير معروف. فاعتقادك وإيمانك هو شأن الجميع. والنساء بالتحديد غير قادرات على اتخاذ قراراتهم الخاصّة. حتى هذا اليوم، النساء المسلمات قد يقتلون دفاعاً عن الشرف إذا تزوّجن رجلاً بمحض إرادتهنّ بدون موافقة عائلاتهن.
هناك قصّة تحكي عن الاضطهاد عن فتاة اسمها سُمَيّة. وابن سعد هو المؤرّخ الوحيد الذي يقول أنّ سمية لقيت الشهادة على يدي أبو جهل. البيهقي يعتمد على رواية ابن سعد ((أنّ أبو جهل طعنها في أعضائها الخاصّة))[21]. إذا حصلت هذه الشهادة فعلاً فسيتردّد صداها في جميع كتب السيرة وكانت سترد على لسان أكثر من كاتب سيرة أو جامع أحاديث. هذا مثال واحد عن حالة المبالغة التي أولع بها المسلمون منذ البداية.
في الواقع، يزعم نفس الكاتب أنّ بلال كان أول شهيد. أمّا الحقيقة فتقول أنّ بلال قد نجا من هذا الاضطهاد المزعوم حتى النهاية، ورجع إلى مكّة عندما غزاها محمد وأذن فيها من على سقف الكعبة. ومات في النهاية ميتة طبيعية.

بعض المصادر الإسلامية تزعم أنّ سميّة، وزوجها ياسر، وابنهما عمّار تمّ اضطهادهم في مكّة. على كل حال، أظهر موير أنه بعد وفاة ياسر بأسباب طبيعية، تزوّجت سميّة عبداً يونانياً يدعى أزرق ورزقت منه بولد سمّته

---

[20] صحيح البخاري، الجزء الخامس، كتاب 58، رقم 207.

[21] الدلائل، 2/282.

"سلمة"[22]. كيف لنا أن نفهم أنها ماتت تحت الاضطهاد؟ كان أزرق ينتمي إلى الطائف، وكان احد العبيد الذين، خلال حصار تلك المدينة (بعد حوالي خمسة عشر عاماً) هرب إلى معسكر محمد. من الطبيعي الاستنتاج أنّ سمية، بعد وفاة زوجها الأول ياسر، تزوّجت أزرق وعاشت في مدينة الطائف وأنّ قصّة اضطهادها واستشهادها هي رواية ملفّقة ومزيّفة.

لم يكن محمد ضدّ العبودية. لاحقاً، عند أصبح قوياً، أجبر آلاف الناس الأحرار على العبودية. على كل حال، كان أمر بترك مكّة يعكّر النظام الاجتماعي وسبباً في العصيان. وبسبب ذلك وتحقيره المستمر لدينهم، أصبح محمد شخص غير مقبول ولا يطاق بين قومه. إلا أنه لم يتمّ اضطهاده لا هو ولا أي من أتباعه بسبب دينه.
المسلمون يقدّمون العديد من المزاعم العارية عن الصّحّة. فالذين يؤمنون بآلهة متعدّدة بشكلٍ عام لا يكترثون أو يهتمّون بمعتقدات الآخرين. فهم تعدّديون بطبيعتهم. كانت الكعبة تحوي ثلاثمائة وستين صنماً، وكلّ واحدٍ منها يمثّل قبيلة مختلفة. وكان هناك اليهود، والمسيحيون، الزرادشتيون، الصابئة وكافة أنواع الديانات في شبه الجزيرة العربية، والتي كان أتباعها يمارسون طقوسهم وشعائرهم الدينية بحرية. كان هناك أنبياء آخرون يبشّرون بدعوتهم. إلا أنّ اللاتسامح الديني ظهر في شبه الجزيرة العربية بظهور الإسلام.

ليس هناك أي دليل على حدوث أي نوع من الاضطهاد ضدّ محمد والمسلمين في مكّة. ومع هذا، يورد المسلمون هذه المزاعم لأنّ محمد زعم ذلك. من المثير للاهتمام، حتى البعض من المؤرّخين غير المسلمين الذين لا يتعاطفون مع الإسلام سقطوا ضحايا ذلك الفخّ وردّدوا تلك الكذبة. ادّعى محمد أنه ضحية، في حين أنه كان هو المسيء في الواقع. والمسلمون يفعلون الشيء نفسه اليوم. نستطيع أن نرى أنّ المسلمون هن الذين يقتلون في كل مكان، هم الذين ينفّذون الاضطهاد، ومع ذلك هم الذين يبكون بصوتٍ عالٍ زاعمين أنهم ضحايا مضطهدين. ولفهم هذه الظاهرة يجب علينا أن نفهم سيكولوجية محمد وأتباعه. وهذا ما سنناقشه في الحلقة القادمة.

في الحقيقة أنه كان محمد هو الذي بشّر باللاتسامح حتى عندما كان في مكّة. غالباً ما يقتبس المسلمون من سورة الكافرون 109 كدليل على أنّ محمد كان يحضّ على التسامح والمحبّة. جاء في هذه السورة المكّيّة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: 1- 6]
مودودي، سيّد قطب والعديد من المفكّرين المسلمين يعرفون أفضل من غيرهم. فهم لا يرون في هذه السورة كحضّ على التسامح والسلام. يكتب المودودي في تفسيره للقرآن: ((إذا قرأت السورة بهذه الخلفية في العقل، يجد المرء أنّها لم تنزل للتبشير بالتسامح الديني كما يظنّ البعض هذه الأيام، بل أنزلت من أجل إعتاق المسلمين من دين الكفّار، طقوسهم في العبادة، وآلهتهم، وللتعبير عن اشمئزازهم التام وعدم الاكتراث بهم وأنّ الإسلام والكفر ليس بينهما أي شيء مشترك وأنه لم يكن هناك إمكانية في الجمع بينهما ودمجهما في وحدة واحدة.
وبالرغم من أنّ الحديث كان موجّه أولاً إلى الكفّار في قريش كاستجابة على مقترحاتهم للمساومة، إلا أنها ليست موجّهة لهم وحدهم، بل جعلت سورة مستقلة في القرآن، إذ أنّ الله عزّ وجلّ أعطى المسلمين أمراً أبدياً بأن يتبرّأوا ويعتقوا أنفسهم من ديانة الكفر مهما كان شكلها أو نوعها، ويجب عليهم أن يعلنوا بدون أيّ تحفّظ أنّهم لن يقدّموا أي تسوية أو مساومة مع الكفار في مسألة الإيمان.))[23]

---

[22] سير وليام موير: السيرة المحمدية، وظهور الإسلام، ص 126.
.Sir William Muir: The Biography of Mahomet, and Rise of Islam. Chapter IV page 126

[23] http://www.usc.edu/dept/MSA/quran/maududi/mau109.html

(٣)
الهجرة إلى المدينة

بين رعاية عدّة أطفال، وبين التعامل مع زوج أناني منغمس في حياته الخاصّة، أهملت خديجة تجارتها، ثمّ ماتت بعد فترة قصيرة، وأصبحت العائلة مُعدَمة. وبعد فترة قصيرة من وفاة خديجة، مات السند الآخر لمحمد، عمّه أبو طالب. وبخسارة هذين الحليفين المقرّبين القويين، وبتجاهل المكّيين له، قرّر محمد الهجرة إلى المدينة، حيث استلم من هناك وعوداً بالولاء من قبل بعض سكّانها. فأمر أتباعه أن يرحلوا أولاً. مانع البعض منهم. فأخبرهم بأنّهم إذا لم يفعلوا ما أمرهم به، فسيكون "مأواهم جهنّم"[24].

إلا أنّ محمد نفسه بقي في مكّة. ثمّ، في ليلة من الليالي، زعم أنّ الله قد أخبره أنّ أعدائه كانوا يدبّرون محاولة لإلحاق الأذية به. عندها سأل صديقه المقرّب أبو بكر أن يرافقه بشكل سري إلى المدينة. والآية التالية تعطينا لمحة عن ذلك التنويه:
{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30]
يبدو أنّ الله يحزر ما كان يخطّط المكّيون لفعله ولم يكن متأكّداً تماماً. أن تكشف هذه الآية مخاوف رجل مصاب بالبارانويا؟ عاش محمد بين المكّيين ثلاثة عشر عاماً، كان يهينهم ويسيء لآلهتهم ودينهم، كما يفعل المسلمون اليوم حين يسيئون ديانات الآخرين، ومع ذلك كانوا متسامحين معه. باستثناء زعم محمد نفسه، ليس هناك أي دليل تاريخي يدلّ على أنهم حاولوا أن يلحقوا به الأذى.

ففي المصادر التاريخية التي ألّفها المسلمون أنفسهم، ليس هناك أي دليل على ممارسة الاضطهاد ضدّ محمد وأتباعه. فكبار السّنّ في قريش، انزعجوا من إهاناته، وذهبوا إلى عمّه المسنّ أبو طالب وقالوا: ((إنه ابن أخيك، أهان آلهتنا وديننا، وانتهك حرماتنا كأننا حمقى، وصرّح أنّ آبائنا وأجدادنا كانوا على ضلال. والآن، انتقم أنت لنا من خصمنا (بما أننا نراك بنفس الوضع الذي رأينا أنفسنا فيه) أو دعك من حمايته واتركنا نتعامل معه بالشكل الذي نراه مناسباً))[25]
هل يعتبر هذا الكلام اضطهاداً أو قريباً منه حتى؟! هذا طلب، رجاء، إنذار نهائي لمحمد للتوقّف عن انتهاك حرمة آلهتهم. قارن ذلك بأفعال المسلمين اليوم عندما تمّ رسم نبيّهم وتصويره في بعض الرسوم الكرتونية. ثار المسلمون، وفي المناطق البعيدة نسبياً كنيجيريا وتركيا، قتلوا حوالي مئة رجل ليس لهم أي علاقة بتلك الرسومات، ومع ذلك تسامح القرشيون مع العديد من الإساءات التي وجّهها محمد لآلهتهم ودينهم طوال ثلاثة عشر عاماً.

في الليلة التي هرب فيها محمد إلى المدينة، بصحبة رفيقه المخلص أبو بكر، أصبحت علامة على بداية التقويم الإسلامي. في المدينة، وجد عرباً أقلّ تعقيداً وأكثر بساطةً من المكّيين. والشيء الإضافي الذي صبّ في مصلحته هو أنهم لم يكونوا يعرفون خلفيته وماضيه، والتي كان المكّيون يعرفونها جيداً. وكنتيجة لذلك، كانوا أكثر تقبّلاً لرسالته.

---

[24] قرآن كريم: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 97]

[25] سير وليام موير، حياة محمد، المجلّد الثاني، الفصل الخامس، ص 162.

لم يكن محمد هو النبي العربي الأول. كان هناك مدّعون آخرون من مناطق مختلفة من شبة جزيرة العرب وكانوا معاصرين له. وأشهرهم كان "مسيلمة"[26]، الذي بدأ رسالته النبوية قبل عدّة سنوات من محمد، ولكن على عكس نبي الإسلام، كان ناجحاً في مدينته ومحبوباً بين قومه. ومن الجدير بالملاحظة أنّ امرأة تدعى سِجاح كانت قد ادّعت النبوّة أيضاً، وكان لها أتباعاً كثر بين قومها. هذان النبيان كانا يبشّران بالتوحيد. وهناك دليل مقنع أنّ النساء _قبل أن يهيمن الإسلام في شبه الجزيرة العربية_ هناك كُنّ محترمات أكثر وكنّ يتمتعن بحقوق أكثر من أي وقت. لم يلجأ أي من هؤلاء الأنبياء الآخرين إلى استعمال العنف لنشر ديانتهم أو لسرقة الناس. لم يكونوا يريدون غزو الأقاليم المجاورة وبناء إمبراطوريات واسعة، بل كانوا مهتمّين _في تقاليد وأعراف الأنبياء الإنجيليين_ بإيصال دعوتهم إلى الناس ليتعرّفوا إلى الله. كان محمد النبي المحارب الوحيد في شبه الجزيرة. أمّا الأنبياء الذين وردت أسماؤهم في الأعلى لم يكونوا عدائيين ضدّ بعضهم البعض. لقد تشاركوا ولم يحاربوا لفرض سيطرتهم.

كان عرب المدينة قد تقبّلوا محمداً مسبقاً، ليس من أجل عمق تعاليمه، التي من الناحية المبدئية، كما ذكرنا سابقاً، كان تصرّ على إخبار الناس بالإيمان به، بل بسبب تنافسهم مع اليهود. كانت المدينة بالأساس مدينة يهودية. اليهود، استناداً إلى إيمانهم، اعتبروا أنفسهم على أنهم "شعب الله المختار". لقد كانوا أيضاً أثرياء ومثقفين أكثر من العرب، وكنتيجة، كانوا محسودين من قبلهم. معظم أقسام المدينة كانت ملكيتها تعود إلى أشخاص يهود. هذه المدينة كانت حاضرة يهودية. "كتاب الأغاني"[27] يتتبّع تاريخ المستوطنة الأولى لليهود في المدينة عائداً إلى زمن موسى, على أيّة حال، في القرن العاشر ظهر كتاب "فتوح البلدان"، ويكتب مؤلّفه البلاذري أنه، وحسب المصادر اليهودية، الهجرة اليهودية الثانية حدثت عام 587 قبل الميلاد، عندما قام "نبوخذ نصّر" ملك بابل بتدمير أورشليم وشتّت اليهود في كافّة بقاع العالم آنذاك. في المدينة، كان اليهود تجّاراً، سبّاكي ذهب، حدّادين، فنّانين، ومزارعين، في حين أنّ العرب كانوا عمّالاً وأغلبهم كان يعمل عند اليهود. لقد جاؤوا إلى المدينة على الأقل بعد ألف عام بعد اليهود، أي في عام 450 أو 451 بعد الميلاد، عندما أجبر الطوفان العظيم الذي حدث في اليمن العديد من القبائل العربية القاطنة في منطقة سبأ أن يهاجروا إلى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة. قدِم العرب إلى المدينة في القرن الخامس للميلاد بصفتهم لاجئين اقتصاديين. ما أن تحوّلوا إلى الإسلام، فقد أقصوا وذبحوا مضيفيهم وسيطروا على مدينتهم.

بعد أن استقرّوا وأمّنوا موطئ قدم لهم في يثرب، التي سمّيت فيما بعد بالمدينة، بدأ العرب هجماتهم وسرقاتهم لليهود. كانت ردّة فعل اليهود بدورهم كما ستكون ردّة فعل أي مضطهد أو معرّض للخطر إذ قالوا: عندما يحضر مسيحهم، فإنّه سينتقم لهم. وعندما سمع العرب زعم محمد بأنه رسول الله وادّعى لنفسه مكانة أفضل من موسى، ففكّر عرب المدينة أنهم بقبولهم إيّاه والتحوّل إلى الإسلام، فإنّهم سيبزّون اليهود.

يروي ابن إسحاق ويقول أنّ الله قد مهّد الطريق أمام الإسلام حيث أنه صار بإمكانهم العيش جنباً إلى جنب مع اليهود الذين كانوا من أهل الكتاب والمعرفة، بينما هم في حقيقتهم كانوا مشركين ووثنيين. كانوا يهاجمونهم في

---

[26] مسيلمة الكذّاب. اسمه الحقيقي مسلمة الحنفي، إلا أنّ المصادر الإسلامية شوّهت صورته بطريقة مجحفة، ولم تنقل لنا الكثير عن أخباره، كما أنه كان له كتاب خاص به، يضاهي القرآن، ويشبهه إلى حدٍ بعيد. حضّر محمد حملة لقتله والتخلّص منه لأنه يشكّل منافسة شديدة لرسالته. [المترجم]

[27] مجموعة من الأناشيد والأشعار في عدّة أجزاء قام بجمعها أبو الفرج علي الأصفهاني. وتتضمّن أشعاراً وقصائد من الأدب العربي القديم حتى القرن التاسع للميلاد. إنه مصدر هام جداً للمعلومات التي تساعدنا على فهم طبيعة المجتمع الإسلامي القروسطي.

أغلب الأحيان في منطقتهم، ومهما بلغت مرارة مشاعرهم، كان اليهود يقولون لهم: سيأتي نبي قريباً. لقد اقترب أوان حضوره. نحن سنتبعه ونقتلكم بمساعدته... لذا عندما سمعوا رسالة النبي، قالوا لبعضهم البعض: هذا هو النبي الذي حذّرنا منه اليهود. لا تدعونهم يصلون إليه قبلنا.[28]

من المثير للسخرية أنّ تكون كلُ من اليهودية والمسيحية هي مصدر قوّة الإسلام وأن يكونا السبب في فناء اليهود من شبه الجزيرة العربية. فبدون هاتين الديانتين، لكان الإسلام قد مات في مهده كمعظم الطوائف الأخرى.
من جديد، ليس هناك أي دليل قاطع يثبت مزاعم محمد أنّ المكّيين قد اضطهدوا المسلمين. هذا الادّعاء يكرّره بشكل مستمرّ وبثقة عمياء جميع المؤرّخين المسلمين وبعض غير المسلمين. إنّ الغضب والعداء تجاه المسلمين كانّ ردّة فعل على سلوك محمد ولا شيء يقارن باضطهاد المسلمين أتباع الديانات والمعتقدات الأخرى. لقد كان محمد، وليس المكّيين، هو الذي أعطى الأوامر للمسلمين بأن يتركوا بيوتهم. وقد أغراهم بالوعود التالية:
{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِّ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [النحل: 41]

لم يكن لدى المهاجرين أي مصدر دخل يعتاشون من وراءه. كيف أمكن لمحمد أن يقدّم مثل هذا الوعد وأن يقول لهم " لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً" لأولئك الذين تركوا بيوتهم وأرزاقهم من أجله؟ لقد أصبحوا فقراء وكانوا يعتمدون على الإعانات القليلة التي يقدّمها لهم المدنيّون لاستمرار بقائهم. كان محمد على وشك أن يخسر مصداقيته.
حيث بدأت همسات السخط تتصاعد بين أتباعه. بعضهم بدأ بالارتداد عن معسكره. وكان ردّه الوحيد على كل هذا تهديداً آخر:
{وَدُّوا [الكفّار] لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء: 89]

كيف يمكننا أن نتصالح مع هذه التهديدات والوعود بعدم المصادقة مع المزاعم التي تقول أنّ المكّيين طردوا محمد وأتباعه من بيوتهم وأخرجوهم من مكّة؟ في الآية السابقة، محمد يأمر أتباعه أن يقتلوا أولئك المسلمين الذين يرتدّون ويريدون العودة إلى مكّة. هذا يشبه ما فعله القس "جيم جونز" في مجمّع جونزتاون بغويانا، حيث أمر رجاله أن يطلقوا النار على أي أحد يحاول الهرب. كل هذا كان مصمّماً لعزل أتباعه ليتيسّر عليه التحكّم بهم والسيطرة عليهم وتلقينهم. فعندما ينفصل أي أحد عن عائلته وأصدقائه، وينضمّ لطائفة جميع أعضائها مسحورين ومنوّمين، يصبح من الصعب جداً التفكير أو التشكيك بسلطة القائد[29].

---

[28] سيرة ابن إسحاق، ص 197.

[29] يقول جلال الدين السيوطي ((ناس تخلفوا عن نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأقاموا بمكة وأعلنوا الإيمان ولم يهاجروا، فاختلف فيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من ولايتهم آخرون، وقالوا: تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يهاجروا فسماهم الله منافقين، وبرأ المؤمنين من ولايتهم، وأمرهم أن لا يتولوهم حتى يهاجروا.)) الدرّ المنثور في التفسير المأثور، الجزء الثاني، ص 178.
وينقل لنا السيوطي أنّ رسول الله قد قال في أحد الأحاديث ((لا هجرة [من مكّة إلى المدينة بعد فتح مكّة]، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم [من قبل حاكم لكم] فانفروا)) [صحيح البخاري، أبواب الجزية والموادعة، 3017]
يظهر هذا الحديث أنّه قبل غزو مكّة، كانت الهجرة من تلك المدينة إحدى المطالب التي يجب أن يلتزم بها المسلمون. وهذا دليل إضافي يدعم حقيقة أنّ المسلمين كانوا مجبرين من قبل محمد على ترك بيوتهم والرحيل، بينما عائلاتهم فعلت كل ما يمكنهم فعله كي يبقوا أحبّائهم ويمنعوهم من اتباع ذلك الرجل.
جلال الدين المصري السيوطي الشافعي الأشعري، يعرف أيضاً باسم ابن الأسيوطي (849- 911) وكان إماماً مجتهداً ومجدّداً في القرن العاشر الإسلامي. كان جامعاً للأحاديث، محققاً، قاضياً، صوفياً، عالماً لغوياً، ومؤرّخاً. وألّف أعمالاً في كافة المجالات تقريباً.

*** فرّقْ تَسُدْ**

بالرّغم من تهديداته المسعورة التي تعد بأنّ العذاب الإلهي سينزل على أولئك الذين يتركونه، كان على محمد أن يجد طريقة أخرى لتقديم مصدراً معيشياً كافياً لأتباعه. وقد وجد الحل لهذه المعضلة، أخبرهم أن يسرقوا القوافل المكّيّة وينهبوها. وقد صرّح أنّ المكّيين قد ابتعدوا عن ديارهم ولذلك من المشروع قطع الطريق عليهم وسلبهم بضائعهم.
{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهَّ ...} [الحج: 39- 40]
في هذه الأثناء، أصدر محمد الكثير من الآيات القرآنية التي يحفّز أتباعه من خلال على مهاجمة غير المؤمنين.
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الأنفال: 65]

برّر محمد هذه الهجمات من خلال ما نطلق عليه اليوم تسمية "بطاقة الضحية Victim Card"، كما يفعل أغلب أتباعه اليوم. لقد زعم أنّ غير المؤمنين كانوا يضطهدون المؤمنين وينوون محاربتهم. في الواقع، إنه هو الذي بدأ بالسلوك العدواني، عن طريق إغارته على القوافل المكّيّة وقتل من معها ما أن أصبح لديه عدد كافٍ من الرجال الذين يؤمنون به والمستعدّين لتنفيذ كل أوامره.

التناقض هنا واضح جداً. ففي آية واحدة يشجّع محمد أتباعه على الهجرة إلى المدينة وتهديد أولئك الذين قد يفكّرون مجرّد التفكير بالبقاء في منازلهم بالإضافة على القتل والعذاب بالنار، بينما آيات أخرى يزعم فيها من فوره أنّ المسلمين قد طردوا من دون أي سبب ويشير إليهم بأنهم "أولئك الذين كتب عليهم القتال".

هذا بالضبط ما يفعله المسلون في الوقت الحاضر. إنهم هم الذين يعتدون على غير المسلمين ويضطهدونهم، يرهبونهم وهو جناة الاضطهاد المنظّم تجاه الأقليات الذين يقطنون بينهم، ومع ذلك، إنهم يبكون كأنهم هم الضحايا ويصوّرون أنفسهم على أنهم المسالمون والمظلومون. فهم من خلال هذه المزاعم كونهم ضحايا يبرّرون فظائعهم وجرائمهم التي يطبّقونها على ضحاياهم.
يقول المثل العربي ((ضربني وبكى، سبقني واشتكى)) ويصوّر هذا المثل الطريقة التي كان يعمل وفقها محمد بشكل مثالي. وأتباعه يلعبون نفس اللعبة القذرة حتى الزمن الحالي. هذه الاستراتيجية جعلت من محمد زعيماً ناجحاً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. لقد ألّب أبناءً ضدّ آبائهم، وحرّض الأخوة ضدّ إخوتهم، وقوّض التحالفات العشائرية، ومزّق نسيج المجتمع. وباستخدامه هذه التكتيكات، سحب كامل الجزيرة العربية ووضعها تحت سيطرته.

لا تفترض أنّ هناك خللاً ما في العرب هو السبب في كونهم متخلّفين إلى حدّ الغباء. فتحوّل الغربيين إلى الإسلام يحمل نفس الخصائص العدائية تجاه قومهم وأهلهم وبلدانهم مثل أولئك العرب الذين عانوا نفس الشيء قبل 1400 سنة. تحوّل جون والتر ليند إلى الإسلام وذهب إلى أفغانستان ليحارب إلى جانب القاعدة ضدّ بلده الأم أمريكا. جوزيف كوهين كان يهودياً أرثوذوكسياً تحوّل إلى الإسلام، واليوم بات يقول أنّ قتل الإسرائيليين المدنيين، ومن ضمنهم الأطفال، هو أمر شرعي[30]. ييفون ريدلي، مراسلة صحفية لـ بي بي سي BBC تسلّلت

[30] http://www.youtube.com/watch?v=BJLsdydjSPo

إلى أفغانستان عام 2001 وأسِرت من قبل طالبان، تحوّلت إلى الإسلام خلال عملية إطلاق سراحها، والآن تكره بلدها الأم لدرجة أنها تسمّيه "ثالث أكثر بلد مكروه في العالم" (بعد إسرائيل وأمريكا طبعاً). هي تؤيّد الهجمات الانتحارية التفجيرية، وتطلق عليها اسم "عمليات استشهادية"، وكانت تسمّي الإرهابي الأفظع "أبو مصعب الزرقاوي" _الذي قتل آلاف المواطنين العراقيين ضمن حملات عنيفة في العراق وخطّط التفجيرات في الأردن التي أدوت بحياة ستين شخصاً وجرحت 115 آخرين في حفل زفاف_ "بطلاً". وبالنسبة للزعيم الإرهابي الشيشاني "شاميل باساييف"، المخطّط الرئيسي لحادثة احتجاز رهائن مسرح موسكو ومذبحة مدرسة بيسلان "أنه شهيد ومكانه في الجنّة"، هكذا تقول ريدلي[31]. الإسلام هو عبارة عن طائفة. فالطوائف تحوّل الناس العاديين الطبيعيين إلى حيوانات زومبي ومخلوقات خالية من الإنسانية.

* وعود بالجوائز والمكافآت السماوية

هناك عدّة آيات قرآنية تحثّ المسلمين على مهاجمة الناس الأبرياء ونهبهم، وذلك من أجل المكافأة في هذا العالم والعالم الآخر. {وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: 20] لاسترضاء ضمائر أولئك الذين كانوا يشعرون بتأنيب الضمير على أفعالهم الوحشية، جعل محمد ربّه بنزل عليه آية تقول الآتي {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال: 69][32]

الكثير من الأعمال الوحشية التي ارتكبها المسلون على مرّ القرون ألهِمَت من هذه الأفكار والآيات. أمير تيمورلنك (1336- 1405) كان رجلاً قاسياً أصبح إمبراطوراً عن طريق اللصوصيّة والنهب. في مذكراته التي تؤرّخ سيرته الذاتية "تاريخ حملتي ضدّ الهند" كتب يقول: ((كان هدفي الأساسي في القدوم إلى هندوستان [الهند] وفي المرور بكلّ هذه المصاعب والمشاق أمران اثنان محوريان. الأول كان محاربة الكفّار، أعداء الإسلام، ومن خلال هذه الحرب الدينية أودّ الفوز بالمكافأة التي أعدّت لي في العالم القادم. أمّا الأمر الثاني فقد كان دنيوياً بحتاً، وهو أنّ جيش الإسلام قد يكسب شيئاً من خلال سلب ثروات وممتلكات الكفّار الثمينة: فالنهب والسلب في الحرب هو أمر مشرّع للمسلمين الذين يحاربون من أجل إيمانهم كحليب أمهاتهم، والتنعّم بتلك الغنائم مشروع كوسائل للنعمة))[33]

---

[31] Daily Muslims, July 12, 2006

[32] أنظر أيضاً الآية رقم 74 من سورة الأنفال {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} والشخص الذي لم يألف أسلوب محمد في الكتابة (في الحقيقة، أسلوبه في القراءة، حيث يقال أنه كان أمياً) قد يتساءل كيف يصدر أمر بقتل الناس الآخرين ونهبهم من الله؟!! على كلٍ، هؤلاء الذين يقرؤون القرآن باللغة العربية يلاحظون أنّ سجع الآيات _فمحمد كان يضيف كلمات أو جمل كاملة ليس لها أي علاقة بالآية_ مثل {مخافة الله}، {الله أرحم الراحمين}، {العليم الحكيم} وذلك لكي يجعل آياته مقفّاة. ما عدا ذلك، من الصعب التصديق أنّه الخوف من غضب الله وفي نفس الوقت يقتل الناس الأبرياء. وبقيامه بذلك _من خلال ربط الله بالنهب والاغتصاب والإبادة الجماعية_ هبط محمد بمعايير أتباعه الأخلاقية إلى الدرك الأسفل ومجّد الأفعال الشريرة. لذلك ازدوجت المعايير وتحوّلت جريمة السلب إلى سلب مقدّس، وأصبح القتل قتلاً مقدّساً باسم الله، وتمّ تمجيد الظلم والعبودية وانتهاك حرمات الآخرين. لقد طمأن رجاله وأكّد لهم أنّ أولئك الذين يناضلون في سبيل إيمانهم سيكافئون، ليس فقط بالغنائم، بل المغفرة عن كافّة ذنوبهم.

[33] Malfuzat-i Timuri,´-or-Tuzak-i Timuri, by Amir Timur-i-lang In the History of India as told by its own historians. The Posthumous Papers of the Late Sir H. M. Elliot. John Dowson, ed. 1st ed. 1867. 2nd ed., Calcutta: Susil Gupta, 1956, vol. 2, pp. 8-98.

حتى وإن افترضنا أنّ هؤلاء الثمانون أو أنّ المسلمون الذين هاجروا أجبروا على الخروج من مكّة بالقوّة من قبل المكّيين، كيف يمكن لهذا أن يبرّر الحملات التي شنّها المسلمون على القوافل؟ فالبضائع التي كانت تحملها تلك القوافل ليست جميعها لأولئك الذين أخرجوا المسلمين من بيوتهم، هناك بضائع تعود لأناس آخرين لا علاقة لهم بالنزاع. هل هناك من أحد يظنّ أنّهم اضطهدوا في مدينة تبرّر انتقام المُضطَهَد من أي شخص في تلك المدينة حتى وإن لم يكن له أي علاقة بالاضطهاد؟ إنّ المسلمون اليوم يستخدمون نفس المنطق عندما يقومون بأعمال تفجيرية ويقتلون المدنيين الأبرياء. إذا أدركوا أنّ تلك البلاد غير ودّية معهم وتتعامل معهم بإجحاف، فإنهم يظنّون أنه لا بأس من قتل أي مواطن بريء من ذلك البلد. كل شيء يفعله المسلمون اليوم ويصيب العالم بحيرة هو تقليد لما فعله محمد من قبل.

في سورة الحج، آية رقم 39 يعطي الله الإذن بالقتال {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}. وهذه هي نفس الآية التي بدأ بها أسامة بن لادن إحدى رسائله الموجّهة إلى أمريكا. هل يمكننا القول عندئذٍ أنّ الإسلام لا يمتّ بصلة للإرهاب الإسلامي؟!!!

(٤)
التحريض على العنف

في المدينة، كان المهاجرون المكّيون قليلون. وليكون فعّالاً في هجماته وغزواته، احتاج محمد أيضاً إلى مساعدة المسلمون المحلّيّون الذين تحوّلوا للتوّ إلى الإسلام، الذين أطلق عليهم اسم "الأنصار".
بأية حال، لكن يكن المدنيون قد انضمّوا إلى الإسلام لكي يغيروا على القوافل ويحاربوا. فالإيمان بالله شيء. والغزو، السرقة، وقتل الناس الأبرياء هو شيء آخر. كان العرب، قبل محمد، لا يخوضون حروباً دينية. حتى اليوم، هناك المسلمون الذين _بالرغم من إيمانهم بالله_ لا يريدون القتال والقتل من أجل دينهم. وللتنكيل بهذا النوع من المؤمنين وجد محمد الطريقة المناسبة، لقد جعل إلهه يأمر بالأمر التالي:
{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]
في الحال، أثمرت جهود النبي. طمعاً بالغنائم والمكافآت التي وعدهم بها محمد على لسان ربه في الحياة الآخرة، سارع المسلمون الأنصار للاشتراك بالحرب وقاموا بعملهم على أحسن وجه. ومع تزايد جيش محمد وارتفاع طموحه، قرّر قاطع الطريق أن يترقّى لرتبة ملك. لقد شجّع أتباعه ليس فقط على شنّ الحروب في سبيله "في سبيل الله"، بل أيضاً لدفع نفقات تلك الحروب.
{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195]

لاحظ الآن كيف ربط محمد "الإحسان" بالنهب، الإرهاب، والقتل. وهو بهذا النظام الملتوي من المبادئ الأخلاقية التي قد يضحّي المسلمون بأنفسهم وضمائرهم ويتّخذوا قيماً سوسيوباتية ظرفية تجاه الجماعات الأخرى، والتي تعمل في غالب الأحيان لصالحهم. مهما كانت المنافع الذي يعود بها الموقف على المسلمين فإنها تعتبر جيدة. جعل محمد أتباعه يؤمنون أنّ دعم حربه مشاركتهم فيها وقيامهم بتلك الأعمال الإرهابية في سبيل الإسلام هي الأفعال الأفضل التي ترضي الله.

اليوم، المسلمين الذين ليس بإمكانهم القتال، فإنهم يعوّضون عن ذلك من خلال مساهمات مالية "خيرية". هذه "المساهمات الخيرية" ليست لبناء المستشفيات، بيوت لليتامى، مدارس أو دور رعاية للمسنّين. بل هي من أجل نشر الإسلام، لبناء المساجد والمدارس الإسلامية، تدريب الإرهابيين، وتمويل الجهاد. المساهمات المالية الإسلامية ستساعد الفقراء فقط عندما ينخرطون في أعمال سياسية. وهناك مثال جيد عن ذلك وهو الأموال الهائلة التي تأتي من بعض الدول الإسلامية لتمويل وتدريب الجماعات الإرهابية. وفي أغلب الحالات يكون سكّان تلك البلاد يعيشون تحت خط الفقر ويعانون من قلّة مصادر عيشهم. لماذا يحدث ذلك؟!!

عندما لم يكن الناس يقدّمون أموالاً كافية لتمويل حملاته العسكرية، كان محمد يذكّرهم بغضب:
{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: 10]
ساوى محمد بذكاء المال الذي يقدّمه المسلمون لتمويل حربه المقدّسة بتقديم قرض إلى الله، ووعدهم "بالأجر الكريم":
{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: 11]
في الوقت الذي جعل فيه محمد الله يخبر أتباعه عن عظم وكبر المكافأة التي تنتظر أولئك الذين يموّلون حملاته العسكرية المقدّسة، في نفس الوقت لم يكن يريد منهم أن يتبجّحوا بشأن مشاركاتهم وتضحياتهم. لأنّ ذلك يجعل

التضحيات تبدو كامتيازات. لقد كان المؤمنون هم الذين يجب أن يكونوا ممتنّين له لأنه منحهم الفرصة لخدمته، وليس العكس:

ذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 262]

بعد أن حرّضهم على شنّ الحروب وأمرهم بضرب رقاب غير المؤمنين أو المتشكّكين، طمأنهم على جوائزهم ومكافاتهم التي تنتظرهم:

{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: 4]

بمعنى آخر، الله قادر على قتل "الكفّار" من دون الحاجة لمساعدة المسلمين، لكنّه يريد منهم أن يفعلوا ذلك عنه لكي يختبر إيمانهم!. وبهذا يكون الله أشبه بالعرّاب المافياوي، زعيم عصابة سفّاح يختبر ولاء زبانيته بتحريضهم على القتل. في الإسلام، يتمّ اختبار إيمان المؤمن من خلال درجة تعطّشه للدماء واستعداده للقتل. ثمّ قال محمد:

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: 60]

أعطى محمد وعوداً خُلّبية بأنّ أولئك الذين حاربوا (بأنفسهم أو أموالهم) ضدّ "الكفّار" وقبلوا به كرسول الله سيكافئون بأعلى الأجور في الآخرة. وكان أكرم الناس وأسخاهم في شخصنة هذه المكافآت. زعم أنّه سيكون هناك كافة أنواع الأطعمة والمشروبات الشهية والانغماس اللانهائي في الملذّات الجنسية الفردوسية، ووعد أنّ بعقاب شديد لأولئك الذين كانوا بخيلين في دعم حروبه[34]:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصّفّ: 10- 12]

{[في الجنّة سيكون المؤمنون] مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرّحمن: 35- 57]

{حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: 32- 34]

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} [الحديد: 7][35]

---

[34] أنظر أيضاً ما ورد في سورة محمد، آية رقم 38 {هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا [من أموالكم] فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا [عن الدّفع] يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}

[35] أنظر أيضاً سورة المنافقون، آية رقم 10 {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}

هذه الآيات وآيات أخرى مماثلة هي التي سهّلت فهم الأمر لماذا أغلب المساعدات الإسلامية تصبّ في سلّة المنظّمات الإرهابية[36].

سيعتقد البعض أنّ تلك المساهمات المالية "الإحسانية" والإرهاب هي مفاهيم متعارضة تماماً، لكن مثل هذا التمييز غير موجود عند المسلمين. فالغرض من المساهمات الإسلامية هو نشر الإسلام ودعم الجهاد. بالنسبة إلينا، هذا إرهاب، أمّا بالنسبة للمسلمين، فإنه حرب مقدّسة، إنه التزام وفعل جدير بالتقدير ويرضي الله.

وبذلك أصبح الجهاد في سبيل الله نظاماً ملزماً ومفروضاً على كلّ المسلمين. ألّب محمد المهاجرين ضدّ قومهم وأهلهم، وطالب بالانتقام من أولئك الذين زعم أنهم اضطهدوه ونكّلوا به.
{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال: 39]
عندما أبدى البعض من أتباعه تردّداً في المشاركة بهذه الحرب، أجبرهم على الانصياع لأوامر والقيام بالعمل من أجله عن طريق الأوامر الجديدة "موحية" التي جاءت من عند الله، تحذّرهم من مصيرهم المريع إذا عصوا.
{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} [محمد: 20]
إذا كانت هذه الآيات تخبرنا بشيء واحد على الأقل، فهو أنّ الإسلام دين حربي بالتعريف. طالما أنّ البشر يؤمنون أنّ الإسلام دين الله وأنّ القرآن هو كلام الله، فسيفوز الإرهاب الإسلامي دائماً. أمّا هؤلاء المسلمين المعتدلين الذين ينادون بالإصلاح، التسامح، وحوار الحضارات يسهل إسكاتهم بسلطة القرآن، لذلك العديد من تلك الآيات تحرّض المسلمين المؤمنين على محاربة غير المؤمنين.
{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء: 84]
مانحة إياهم ضمان النجاح والنصر:
{الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء: 141]
وتعدهم بمكافآت وجوائز سماوية:
{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة: 20][37]

---

[36] هناك شهادة أصبحت علنية الآن في المحكمة الفدرالية في ولاية فرجينيا في شهر أغسطس/ آب عام 2003 تؤكّد أنّ مساعدات مالية إسلامية بقيمة 3،7 مليون دولار تمّ منحها لشركة بي إم آي BMI، وهي شركة استثمارية إسلامية في مدينة نيوجيرسي من المشتبه أنها تمرّر الأموال إلى الجماعات الإرهابية. كان المال جزءاً من عشرة ملايين دولار جاء من مصادر غير معروفة من جدّة، بالمملكة العربية السعودية.

http://pewforum.org/news/display.php?NewsID=2563

هناك قضية أخرى من نفس النوع يمكنكم الإطلاع عليها على الرابط التالي:

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn...2004Jul27.html

[37] أنظر أيضاً القرآن سورة الأنفال، آيات رقم 72 {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} و 74 {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}

المفكّرون المسلمون في كلّ مكان يردّدون هذه التحريضات على العنف. ويدافع مفتي السعودية، أعلى سلطة دينية إسلامية، عن روح الجهاد، كحق إلهي. ((إنّ نشر الإسلام قد مرّ بعدّة مراحل مختلفة، في السر ثمّ في العلن، في مكّة وفي المدينة)) الأماكن الأقدس في الإسلام، يقول الشيخ عبد العزيز الشيخ في تصريح له نقلته وكالة SPA. ((عندئذٍ سمح الله للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم والقتال ضدّ أولئك الذين يقاتلونهم، وهذا حق شرّعه الله، هذا أمر منطقي جداً، ولن يكرهه الله))[38]

يوضّح الشيخ قائلاً أنّ الحرب لم تكن خيار محمد الأول: ((لقد منحهم ثلاث خيارات: إمّا أن يقبلوا الإسلام، أو يستسلموا أو يدفعوا الجزية، وسيسمح لهم بالبقاء في وطنهم، يمارسون دينهم تحت حماية المسلمين))[39].

حضرة المفتي محقّ تماماً. إنّ العنف ضدّ غير المسلمين كان هو الحل الأخير، إذا رفضوا التحوّل إلى الإسلام أو الاستسلام بطريقة سلمية لجيوش المسلمين. وهذا ليس بفضل محمد. لجأ بعض اللصوص المسلّحين إلى العنف كحلّ أخير إذا تعاون معهم ضحاياهم واستسلموا بطريقة سلمية. المجرمون لا يستخدمون العنف إلا إذا واجهوا مقاومة.

في محادثة على الإنترنت حصلت بيني وبين السيد يافيد أحمد غامدي، عملياً هو عالم إسلامي باكستاني بارز، عن طريق تلميذه الدكتور خالد زاهر، كتب السيد الغامدي: "إنّ احتمالية القتل المذكورة في القرآن هي إمّا من أجل أولئك الذي ارتكبوا جرائم قتل، أو سبّبوا أذىً ومآسي كثيرة على الأرض، أو أولئك الذين تمّ الإعلان بأنهم لا يستحقّون العيش في هذا العالم بعد الآن بعد أن أنكروا رسالة الله الواضحة والبيّنة". السيد غامدي هو مسلم معتدل. على كل حال، إنه يعرف دينه بشكل جيد ويعرف أنّ الذي يرفض الإسلام "غير جدير بالحياة على هذا الكوكب" ويجب أن يقتل[40]

---

[38] http://metimes.com/articles/normal.p...8-110403-1970r

[39] المصدر السابق

[40] http://www.faithfreedom.org/debates/Ghamidip18.htm

(٥)
الغزو

غالباً ما يتحدّث المسلمون ويتفاخر عن معارك محمد. إنه فخر مؤسّس على وهم. فمحمد كان يتجنّب المعارك. كان يفضّل نصب الكمائن والغزوات المفاجئة، والتي تسمح له بأن يتفوّق على أعدائه ويأخذ ضحاياه على حين غرّة وذبحهم بينما هم غير جاهزين أو مستعدّين أو عُزّل.
وخلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، بعد أن انتقل إلى المدينة وشعر بالقوّة والبأس بين أتباعه، قام محمد بأربعٍ وسبعين غزوة[41]. بعضها يعتبر كعمليات الاغتيال، بينما أخرى كانت حملات عسكرية مؤلّفة من آلف الرجال. شارك في سبعٍ وعشرين حملة. وقد أطلق على هذه الحملات اسم "غزوات". أمّا تلك الحروب التي أمر فيها رجاله بشنّ الحربٍ ولم يشارك فيها فسمّيت "بالسرايا". وكلا النوعين ـ الغزوات والسرايا ـ يعني الحملات العسكرية، الكمائن، والهجمات المفاجئة.
روى البخاري حديثاً عن عبد الرحمن بن كعب يقول فيه ((أن النبي صلى اللهّ عليه وسلم كان إذا أراد غزوة وَرَّى غيرها))[42]

عندما كان محمد يخرج في غزوة، كان يبقى خلف جنوده، محمياً بحاشيته الخاصّة. ولن نلاحظ في أي مكان من كتب السيرة الأصلية دليلاً على أنّ محمد حارب بنفسه.
في إحدى المعارك، التي عرفت باسم "الحرب المدنّسة" التي حصلت في مكّة، لازم محمد أعمامه. كان عمره في ذلك الوقت يبلغ عشرين سنه، وكانت مهمته تنحصر في تجميع السهام التي أطلقها الأعداء، أثناء وقف الإطلاق وتسليمها إلى أعمامه. وكما فسّر موير ذلك ((الشجاعة الجسدية طبعاً والجرأة القتالية، لم تكن من القيم والفضائل التي تميّز بها النبي في أي وقت في مسيرته))[43].

نصب محمد وأتباعه الكمائن وأغاروا على المدن والبلدات من دون أي إنذار، يهبطون على المدنيين غير المسلّحين، ويذبحون أكبر عدد ممكن منهم، ويأخذون كافة أغنام ومواشي الجالية المقهورة، أسلحتهم وممتلكاتهم، بالإضافة إلى زوجاتهم وأولادهم. أحياناً كان المغيرون يطلبون فداء الفتيات والأطفال بالمال، أو أخذهم وبيعهم كالعبيد.
والحديث التالية يروي لنا ما حدث في إحدى الغارات:
((أن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية. حدثني به عبد الله بن عمر، وكان في ذلك الجيش))[44]
في هذه الحرب، يقول المؤرّخ المسلم، أنّه تمّ أخذ أكثر من 600 شخص كأسرى من قبل المسلمين. وبين الغنائم كان هناك 2000 جمل و 5000 عنزة[45].

أصيب العالم بالصدمة عندما قام الإرهابيون المسلمون بقتل الأطفال، وأسرع المفكّرون والمدافعون عن الإسلام بالإعلان أنّ قتل الأطفال في الإسلام محرّم. والحقيقة هي أنّ محمد سمح بقتل الأطفال خلال الحملات الليلية:

---

[41] تاريخ الطبري، الجزء الثاني، ص 1- 2.

[42] صحيح البخاري، 5، 59، 702.

[43] وليام موير، حياة محمد، الجزء الثاني، الفصل الثاني، ص 6.

[44] صحيح البخاري، كتاب العتق، 2403.

[45] المصدر السابق.

((عن الصعب بن جثامة. قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الذراري من المشركين؟ يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم. فقال (هم منهم).))[46]

إنّ الهدف الرئيسي وراء حملات محمد كان الحصول على الغنائم في المرتبة الأولى. عدد من المصادر التي تعتبر موثوقة من قبل عدد ضخم من المسلمين تشهد أنّه من أجل الفور، كان النبي يستغلّ عنصر المفاجأة:

((عن ابن عون. قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ قال: فكتب إلي: إنما كان ذلك في أول الإسلام. قد أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون. وأنعامهم تسقى على الماء. فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم وأصاب يومئذ. (قال يحيى: أحسبه قال) جويرية. (أو قال البتة) ابنة الحارث)) [47]

ولتبرير هذه الهجمات الوحشية على المدنيين الأبرياء، غالباً ما كان المؤرّخون الإسلاميون يتهمون ضحاياهم بالتآمر على الإسلام. على أية حال، ليس هناك أي سبب للاعتقاد بأنّ أي قبيلة عربية ستستفيد من خلال غزوها للمسلمين، الذي أصبحوا جماعة قوية من اللصوص وقطّاع الطرق. وعلى عكس هذه المزاعم، هناك العديد من القبائل التي تبنّت سياسة الاسترضاء مع المسلمين، من خلال عقد معاهدات سلام مع محمد كي تبقى بأمان. تلك المعاهدات تمّ خرقها لاحقاً من قبل النبي عندما أصبح قوياً وذا بأس.

لم يجلب أسلوب النهب والسرقة الثروة والغنى فحسب لهذه العصابة الغازية، بل قد أمّن لهم الجواري والنساء. كانت جويرية فتاةً شابّة رائعة الجمال، قتل زوجها، ووقعت أسيرة للمسلمين. عائشة، زوجة محمد المفضّلة والأصغر بين زوجاته (التي، حسب بعض المصادر التاريخية الإسلامية كانت تبلغ ستّ سنوات عندما تزوّجها محمد البالغ من العمر 51 عاماً، وتسع سنوات عندما دخل بها) اصطحبت محمد في هذه الحملة، حيث أنها روت لاحقاً:

((عن عائشة قالت: وقعت جويرية بنت الحارث بن المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، أو ابن عمّ له، فكاتبت على نفسها، وكانت امرأةً ملاّحة تأخذها العين، قالت عائشة رضي اللهّ عنها: فجاءت تسأل رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم في كتابتها، فلما قامت على الباب فرأيتها كرهت مكانها وعرفت أن رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم سيرى منها مثل الذي رأيت، فقالت: يارسول اللهّ، أنا جويرية بنت الحارث، وإنما كان من أمري ما لايخفى عليك، وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، وإني كاتبت على نفسي فجئت أسألك في كتابتي فقال رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم: "فهل لك إلى ما هو خيرُ منه؟" قالت: وما هو يارسول اللهّ؟ قال: "أؤدِّي عنك كتابتك وأتزوجك" قالت: قد فعلت))[48]

هذه الحادثة يجب أن تضع حدّاً لأي نقاش حول الدافع الحقيقي خلف زيجات محمد الكثيرة. لقد قتل هو ورجاله زوج جويرية في غزوة مفاجئة. كانت ابنة زعيم قبيلة بني المصطلق وكانت أميرة أيضاً. فنزلت إلى مرتبة العبودية وأصبحت من ممتلكات سفّاحي محمد. على أية حال، ولأنها كانت رائعة الجمال، عرض عليها النبي بأن يعتقها بشرط أن تتزوّجه. هل هذه حرية؟!!! ما الخيارات الأخرى التي كانت أمامها؟ حتى وإن اعتقها محمد، فأين كانت ستذهب، ولمن تلتجئ؟

---

[46] صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، 1745.

[47] السابق، 1730.

[48] http://66.34.76.88/alsalafiyat/juwairiyah.htm سنن أبو داؤود، كتاب العتق، 3931.

يصرّ المفكّرون الإسلاميون على أنّ معظم زوجات محمد كُنّ أرامل. لذلك قد يتولّد لدى المرء انطباع بأنّه تزوّجهنّ من قبيل الإحسان. أمّا ما تناسوه فهو أنّ أولئك الأرامل كُنّ صغيرات وجميلات، وترمّلن لأنّ محمد قتل أزواجهنّ. كانت جويرية بسنّ العشرين في حين كان محمد بسنّ 58. يعترف المؤرّخون الإسلاميون أنّ محمد لم يتزوّج امرأة إلا إذا كانت صغيرة، جميلة، وليس لديها أطفال. باستثناء سودة بنت زمعة، التي كانت في الثلاثين من عمرها عندما تزوّجها محمد وذلك كي تعتني بأولاده، وطبقاً لحديث كفّ عن ممارسة الجنس معها بعد أن أصبح لديه زوجات أصغر منها وأجمل[49]، جميع زوجاته الأخريات كُنّ في السن ما بين العاشرة والعشرين، وكان هذا عندما كان هو في السنّ بين الخمسين والستين. روى المؤرّخ الطبري[50] أنّ محمد توسّل هند بنت أبو طالب، ابنة عمّه، لتتزوّج به، لكن عندما أخبرته أنّ لديها طفلاً، تراجع. امرأة أخرى، بنت عامر. طلب محمد من أحدهم أن يطلبها له. قبلت، لكنّه عندما عرف سنّها، غيّر رأيه[51].

روى رجلٌ مسلم يدعى جرير بن عبد الله أنّه في أحد الأيام ((تزوجت امرأة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال "يا جابر تزوجت ؟" قلت: نعم. قال "بكر أم ثيب ؟" قلت: ثيب. قال "فهلا بكرا تلاعبها ؟"))[52]

كانت المرأة بالنسبة لرسول الله غرضاً جنسياً فحسب. لم يكن لها أيّة حقوق أو امتيازات أكثر من الأنعام. وظيفتها كانت أن تمنح السعادة واللذّة لزوجها وأن تلد له الأطفال.

---

[49] روت عائشة أنّ سودة منحتها ليلتها وذلك بغية إرضاء رسول الله. [صحيح البخاري،3،47، 766]

[50] محمد بن جرير الطبري (838- 923) كان أحد أشهر وأبرز المؤرّخين المبكّرين الفرس، ومفسّري القرآن، وأشهر أعمال "تاريخ الطبري"، و"تفسير الطبري".

[51] الطبري، الجزء الرابع، ص 1298.

[52] صحيح البخاري، 3، 34، 310.

(٦)
الاغتصاب

سمح محمد لأتباعه باغتصاب النساء اللواتي يتمّ أسرهُنّ في الغارات. بأيّة حال، بعد أسر النساء، واجه المسلمون معضلة. كانوا يرغبون بممارسة الجنس معهنّ ولكن في نفس الوقت كانوا يرغبون في أن يطلبوا فدية مالية عليهنّ لذلك لم يكونوا يريدون يجعلوا أولئك النسوة حاملات. بعض أولئك النسوة كُنّ متزوّجات مسبقاً. هرب أزواجهُنّ حين أخِذوا على حين غرّة وبقوا أحياءً. اعتبر الغزاة إمكانية الجماع ممكنة (سحب القضيب قبل القذف أو العزل كما كانوا يسمّونه). إلا أنهم لم يكونوا متأكّدين من أنه أفضل عمل. فذهبوا لاستشارة محمد:
((عن أبي سعيد الخدري في غزوة بني المصطلق: أنهم أصابوا سبايا، فأرادوا أن يستمتعوا بهنَّ ولا يحملن، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن العزل، فقال: (ما عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة). وقال مجاهد، عن قزعة: سمعت أبا سعيد فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليست نفس مخلوقة إلا الله خالقها).))[53]

لاحظ أنّ محمد لا يحرّم اغتصاب النساء الأسيرات في الحرب. وبدل ذلك، أكّد على أنّ الله إذا أراد أن يخلق أي شيء، فلا شيء يحول دون ذلك. بمعنى آخر، حتى غياب المني لا يمكنه منع ذلك. إذن محمد يخبر أتباعه أنّ العزل سيكون بلا فائدة ولا طائل منه لأنّه سيكون محاولة لإحباط إرادة الله. محمد لا يقول ولو كلمة واحدة ضدّ الإلقاح الإجباري لأولئك النسوة الأسيرات. في الواقع، وعن طريق انتقاد العزل، فقد شرّع وحلّل عملية الإلقاح الإجباري.
في القرآن، حلّل إله محمد جماع النساء الأسيرات، وسمّاه "ملك اليمين"، حتى وإنّ كُنّ متزوّجات قبل وقوعهنّ في الأسر[54].

[53] صحيح البخاري، كتاب التوحيد، 6974، 2116. وهناك الكثير والكثير من الأحاديث الشرعية التي توضّح كيف وافق محمد على الجماع بالنساء الأسيرات، لكن قال أنّ القذف خارجاً غير ضروري لأنه إنّ أراد الله لأحدٍ أن يولد، فتلك الروح سواءً قذف الإنسان داخل فرج المرأة أم خارجاً. أنظر الأحاديث التالية:
((عن ابن محيريز أنه قال: دخلت المسجد، فرأيت أبا سعيد الخدري فجلست إليه، فسألته عن العزل، قال: أبو سعيد: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سبيا من سبي العرب، فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل، فأردنا أن نعزل، وقلنا نعزل ورسول الله بين أظهرنا قبل أن نسأله، فسألناه عن ذلك، فقال: (ما عليكم أن لا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة).)) [صحيح البخاري، كتاب المغازي، 3907]
((عن جابر قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وسلم فقال: [يا رسول اللهّ] إن لي جارية أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل، فقال: "اعْزِلْ عنها إن شئت؛ فإنه سيأتيها ما قُدِّرَ لها" قال: فلبث الرجل ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حملت، قال: "قد أخبرتك أنه سيأتيها ما قُدِّرَ لها".)) [سنن أبو داوُد، كتاب النكاح، 2173]

[54] القرآن، سورة النساء، آية رقم 24 {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}. وأيضاً الآية رقم 3 من نفس السورة {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا}
أنظر أيضاً الآية رقم 50 من سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}

*** التعذيب**

يروي ابن إسحاق ما حصل في يوم غزو المدينة اليهودية "خيبر" حيث ينقل لنا خبراً عن محمد أنه هاجم، ومن دون سابق إنذار، هذا الحصن وقتل شعبه غير المسلّح بينما كانوا يحاولون الهرب. وبين الأسرى كان هناك شخص اسمه كنانة:
((وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلّم بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: إنّي رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كلّ غداة، فقال رسول الله صلعم لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟ قال: نعم، فأمر رسول الله صلعم بالخربة فحُفِرَت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثمّ يأله عمّا بقي، فأبى أن يؤدّيه. فأمر به رسول الله صلعم الزبير بن العوّام، فقال: عذّبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزندٍ في صدره، حتى أشرف على نفسه، ثمّ دفعه رسول الله صلعم إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة))[55].

بنفس اليوم الذي عذّب فيه محمد الشاب كنانة حتى الموت، أخذ زوجته صفيّة البالغة من العمر سبعة عشر عاماً إلى خيمته ليجامعها. قبل سنتين من هذه الحادثة، كان قد قطع رأس والدها مع باقي الذكور البالغين عندما هاجم قبيلة بني قريظة. كتب ابن إسحاق:
((قال ابن إسحاق: ولمّا افتتح رسول الله صلعم القموص، حصن بن أبي الحقيق، أتي رسول الله صلعم بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمرّ بهما على قتلى من قتلى اليهود، فلمّا رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكّت وجهها وحثّت التراب على رأسها.
فلمّا رآها رسول الله صلعم قال: أعزبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أنّ رسول الله صلعم قد اصطفاها لنفسه.
فقال رسول الله صلعم لبلال، فيما بلغني، حين رأى بتلك اليهودية ما رأى، أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟))[56].

البخاري أيضاً سجّل لنا بعض الأحاديث عن "فتح" محمد لحصن خيبر، واغتصابه لصفيّة عشيّة مقتل زوجها:
((عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر، فصلينا عندها صلاة الغداة بغلس، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم، وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبي طلحة، فأجرى نبي الله صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر، وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم حسر الإزار عن فخذه، حتى إني أنظر إلى بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخل القرية قال: (الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين). قالها ثلاثا، قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا: محمد - قال عبد العزيز: وقال بعض أصحابنا: والخميس، يعني الجيش - قال: فأصبناها عنوة، فجمع السبي، فجاء دحية، فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، قال: (اذهب فخذ جارية). فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: (ادعوه بها). فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خذ جارية من السبي غيرها). قال: فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها،

---

[55] سيرة رسول الله، ص 515. السيرة النبوية، ابن هشام، عقوبة كنانة بن الربيع.

[56] السيرة النبوية، ابن هشام/ أمر صفيّة أمّ المؤمنين.

حتى إذا كان بالطريق، جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروسا، فقال: (من كان عنده شيء فليجيء به). وبسط نطعا، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا حيسا، فكانت وليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.))[57]

هناك أيضاً حديث مرويّ عن أنس أحد أصحاب النبي ((عن أنس رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نفر من عكل، فأسلموا، فاجتووا المدينة، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فصحُّوا، فارتدُّوا وقتلوا رعاتها، واستاقوا الإبل، فبعث في آثارهم، فأتي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، ثم لم يحسمهم حتى ماتوا.))[58] وقال أيضاً أنهم طلبوا ماءً للشرب، إلا أنه لم يسقهم أحد حتى ماتوا.

هؤلاء العرب ارتكبوا جريمة قتل وسرقة، وكان لزاماً أن يعاقبوا، ولكن لماذا كل هذا التعذيب؟ ألم يكن محمد يفعل الشيء نفسه تماماً؟ من أين جاء محمد بجماله؟ ألم تكن مسروقة؟ ألم يغزو ويقتل الناس ليسرقهم وينهبهم؟.
هذا المعيار المزدوج هو الذي يميّز شخصية العالم الإسلامي منذ قيامه. إنّ مفهوم القاعدة الذهبية Golden Rule والعدل غائبان تماماً عن عقل المسلمين. إنهم يطالبون بكافة الامتيازات في البلدان غير المسلمة، بينما هم ينكرون حقوق الإنسان الأساسية لغير المسلمين في البلدان التي يشكّلون هم فيها الأغلبية.إنهم يؤمنون بكل كيانهم أنّ الأمور يجب أن تكون على هذا الوضع.

*** الاغتيال**

حتى هذا اليوم، يؤمن معظم المسلمين أنّ الطريقة الوحيدة في التعامل مع أعداء الإسلام هو باغتيالهم. في عام 1989، أصدر الخميني فتوى لاغتيال سلمان رشدي، لأنّ رشدي ألّف كتاباً تحت عنوان "آيات شيطانية" ظنّ البعض أنه يسيء فيه للإسلام. البعض أدان الخميني واتهمه بالتطرّف. أمّا المثير للدهشة أنّ الكثيرين لاموا رشدي لكونه لم يراعي حساسية ومشاعر المسلمين. في الرابع عشر من شهر فبراير/ شباط عام 2006، أوردت وكالة أنباء إيرانية أنّ الفتوى ستظلّ سارية بشكل دائم.
منذ بدايته، أزال النظام الإيراني الإسلامي كافة معارضيه بانتظام وذلك عن طريق اغتيالهم، سواءً أولئك الذين يعيشون في إيران أو المنفيّين في الخارج. مئات المنشقّين تمّ قتلهم بهذا الأسلوب، من ضمنهم د. شابور باختيار، وهو ديمقراطي حقيقي وآخر رؤساء الوزارات زمن الشاه.

ما لا يعلمه أكثر الناس أنّ الاغتيال كان طريقة محمد في التعامل مع المعارضين. والمسلمون القتلة اليوم يتبعون نبيّهم كقدوة حسنة.

---

[57] صحيح البخاري، أبواب الصلاة في الثياب، 364. في هذا الحديث ينقل لنا الراوي كيف أنّ المسلمين غزو مدينة خيبر، خلال الصباح مستغلّين عدم وجود حرّاس يحرسون المدينة. "خربت خيبر" هذا ما قاله رسول الله عندما انتقل من حصن إلى أخر منتصراً: ((الله أكبر ! خربت خيبر.إنا إذا نزلنا بساحة قوم. فساء صباح المنذرين!))
بعد غزو المدينة، حانت اللحظة لاقتسام الغنائم. دحية، أحد المحاربين، أخذ صفية ضمن حصّته. والد صفيّة الذي كان زعيم بني النضير كان قد قُطِع رأسه بأمرٍ من محمد قبل ثلاث سنوات. وبعد غزو خيبر، عُذّب زوجها الشاب وقتِل بأمر من محمد أيضاً. أحدُ ما أخبر محمد أنّ صفية البالغة من العمر سبعة عشر عاماً كانت في غاية الجمال. لذلك عرض محمد على دحيّة فتاتين، ابنتي عمّ صفيّة، بدلاً منها وأخذ صفيّة لنفسه.

[58] صحيح البخاري، كتاب المحاربين من أهل الكفر والرّدّة، 6417.

كعب بن الأشرف كان أحد ضحايا محمد. وقد نقل المؤرّخون المسلمون بأنه كان شاباً ووسيماً، شاعراً موهوباً وزعيم قبيلة بني النضير، أحد القبائل اليهودية في المدينة. وبعد أن نفى محمد بني قريظة، وكانت قبيلة أخرى من قبائل المدينة، أصبح كعب قلقاً على مصير شعبه وأمنه من المسلمين، لذا زار مكّة يسعى وراء الحماية. قال أشعاراً ومدح المكّيين على شجاعتهم وشرفهم. وعندما سمع محمد عن ذلك، ذهب إلى المسجد، وبعد الانتهاء من الصلاة، قال:

((قال عمرو: سمعت جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله). فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: (نعم). قال: فائذن لي أن أقول شيئا، قال: (قل) فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضا والله لتملنه، قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين؟ - وحدثنا عمرو غير مرة، فلم يذكر وسقا أو وسقين، أو: فقلت له: فيه وسقا أو وسقين؟ فقال: أرى فيه وسقا أو وسقين - فقال: نعم، ارهنوني، قالو: أي شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم، قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب، قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، وكنا نرهنك اللأمة - قال سفيان: يعني السلاح - فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة، وقال غيرعمرو، قالت أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب. قال ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين - قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم - قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر. قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرة ثم أشمكم، فنزل إليهم متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحا، أي أطيب، وقال غير عمرو: قال عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو: فقال أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم، فلما استمكن منه، قال: دونكم، فقتلوه، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه.))[59] وقُتِل أبو رافع بعده.

لم يشجّع نبي الله على الاغتيال فحسب، بل دافع عن الكذب والخداع والخيانة أيضاً. هناك ضحية أخرى من ضحايا محمد يضاف إلى سلسلة اغتيالاته، وهو رجل عجوز كان يسمّى أبو عفك، الذي قيل أنّ عمره كان يبلغ عندما قتله محمد 120 عاماً. قال شعراً، رثا فيه هؤلاء الذين اتبعوا محمد وصاروا من أنصاره. كتب أنّ محمد كان رجلاً مجنوناً علّم الناس اعتباطياً ما الحلال وما الحرام، وسبّب لهم انخفاضاً في مستوى ذكائهم وان يصبحوا أعداءً لبعضهم البعض*. أور ابن سعد هذه القصّة على الشكل التالي:

((سرية سالم بن عمير العمري إلى أبي عفك اليهودي في شوال على رأس عشرين شهرا من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو عفك من بني عمرو بن عوف شيخا كبيرا قد بلغ عشرين ومائة سنة وكان يهوديا وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الشعر فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وقد شهد بدرا علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه فأمهل يطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو عفك بالفناء وعلم به سالم بن عمير فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش وصاح عدو الله فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه))[60]

---

[59] صحيح البخاري، كتاب المغازي، 3811، 2375.

[60] الطّبقات الكبرى، ابن سعد 2/8 ص 31.

الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هذا العجوز هي أنه هجا محمد ببعض الأشعار الناقدة. وعندما سمعت عصماء بنت مروان عن جريمة القتل هذه، وكانت امرأة يهودية وأمّاً لخمسة أطفال صغار، غضبت كثيراً لدرجة أنّها قالت أبياتاً تذمّ وتلعن فيها رجال المدينة لأنهم جعلوا رجلاً غريباً يفرّقهم ويؤلّبهم ضدّ الآخرين وقتل عجوز مسنّ وضعيف*. مرّةً أخرى خرج محمد إلى المنبر وصاح:

((سرية عمير بن عدي بن خرشة الخطمي إلى عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد لخمس ليال بقين من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهرا من مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حصن الخطمي وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر فجاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها منهم من ترضعه في صدرها فجسها بيده وكان ضرير البصر ونحى الصبي عنها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت ابنة مروان قال نعم فهل علي في ذلك من شيء فقال لا ينتطح فيها عنزان فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عميرا البصير))[61]

بعد أن تلقى القاتل ترحيباً وشكراً من محمد على قتله عصماء، ذهب القاتل إلى أطفالها، تفاخر بجريمته، وعنّف هؤلاء الأطفال وأهل القتيلة.

((فرجع عمير إلى قومه، وبنو خطمة يومئذٍ كثير موجهم في شأن بنت مروان، ولها يومئذٍ بنون خمسة رجال، فلمّا جاءهم عمير من عند رسول الله صلعم، قال: يا بني خطمة، أنا قتلت ابنة مروان، فكيدوني جميعاً ثمّ لا تنظرون، فذلك اليوم أول ما غزّ الإسلام في دار بني خطمة، وكن يستخفي بإسلامهم فيهم من اسلم، وكان أول من أسلم من بني خطمة عمير بن عدي، وهو الذي يدعى القارئ، وعبد الله بن أوس، وخزيمة بن ثابت، وأسلم يوم قتلت ابنة مروان، رجال من بني خطمة، لمّا رأوا من عزّ الإسلام))[62].

بعد كل عمليات الاغتيال هذه، أصبح مسلمو المدينة أكثر تبجّحاً، غروراً وتجبّراً، حيث أنهم زرعوا الرّعب في قلوب معارضيهم. أراد محمد أن يبعث رسالة بأنّ أي معارضة أو نقد موجّه له يعني الموت المحتّم. هذا بالضبط نفس الاستراتيجية التي يستخدمها المسلمون في الزمن الحالي، حيث أنّ التهديد غالباً ما يكون ضمنياً. إنّهم يتبعون النموذج والأسلوب الذي وضعه لهم نبيّهم، الذي يعتبرونه أعظم مخلوق عندهم. إنهم يريدون أن يخلقوا حاجزاً من الخوف حتى يتمكّنوا من إقامة إمبراطوريتهم من خلال الرعب والإرهاب.

ليس هناك أي شك داخل عقل الإرهابي المسلم أنّ هذه الاستراتيجية ناجحة. فبالنسبة لهم، إنّ الأمر القرآني "ألقوا في قلوب الكافرين الرّعب"[63] يبدو أنه أفضل وأضمن طريق إلى النصر. لقد نجح الأمر مع محمد، فقد كان يتبجّح ويفاخر ((نُصِرتُ بالرعب))[64]. نجح الأمر في إسبانيا عندما قتل الإرهابيون مئتي شخص عن طريق

---

[61] الطبقات الكبرى، 2/8.

[62] السيرة النبوية، ابن هشام.

[63] الآية القرآنية {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 151]

[64] عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بُعِثتُ بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم رأيتني أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوُضِعت في يدي). [صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنة، 6845]

تفجير قطارات المسافرين في الحادي عشر من شهر مارس/ آذار عام 2004، وكردّ على تلك الأحداث، صوّت الاشتراكيّون للحكومة التي تبنّت من فورها سياسة الاسترضاء مع المسلمين.

وبسبب التكتيكات الناجحة التي وضعها محمد وورثته الإيديولوجيين، استنتج الإرهابيون أنّ استراتيجية العنف ستنجح في كل مكان وكل زمان. هم لن يتوقّفوا حتى يسقط العالم بأجمعه أو يثبت أنهم على خطأ من خلال مواجهتهم مع قوّة أكبر وأعظم وأشرس.

العالم الإسلامي مريض، وسيكون من ضيق الأفق أن ننكر أنّ سبب هذا المرض هو الإسلام. كل جريمة، وكل عمل غير إنساني مرتكب من قبل المسلمين مُلهَم ومُبَرّر من خلال كلمات وأفعال محمد نفسه. هذه هي الحقيقة المؤلمة التي ـ وللأسف ـ التي لا يريد أن يراها العديد من الناس.

*** ملحق أضافه المترجم:**

أودّ أن أذكر هنا الأبيات الشعرية التي قالها كلٌ من أبي عفك وعصماء بنت مروان والتي كانت سبباً في خسارتهما حياتهما، وليحكم كل قارئ عمّا إذا كان ذلك سبباً كافياً لقتل أي إنسان مهما كان دينه أو اعتقاده.
قال أبو عفك:

لقد عشتُ دهراً وما إن أرى من الناس داراً ولا مجمعا
أبـرّ عهـوداً وأوفى لمـن يعاقـد فيـهم إذا مـا دعا
مـن أولاد قيلـة في جمعهم يـهدّ الجبال ولم يخضعا
فصدعهم راكـب جاءهـم حلالٌ حرامٌ لشتى معـا
فلو أنّ بالعـزّ صدقتـم أو الملك تـابعتـم تبعـا

فغضب محمد عندما سمع هذا الشعر وحرّض على قتل أبو عفك، فخرج سالم بن عمير فقتله. وعندما سمعت عصماء بنت مروان بهذه الجريمة النكراء القذرة، قالت شعراً تعيب على فاعلها ونددت بهذه الطرق في قتل الناس الأبرياء:

باست بني مالك والنبيت وعوف وباست بني الخزرجِ
أطعتم أتاويّ من غيركم فـلا مـن مـراد ولا مـذحجِ
ترجونه بعد قتل الرؤوس كـما يـرتجي مرق المنضجِ
ألا أنـف يبتـغـي غـرّة فيقطـع مـن أمـل المرتجـي

إلا أنها لاقت المصير نفسه عندما سمع محمد بذلك، وكعادته أرسل أحداً ليقوم عنه بعمله القذر، فظهر من بين الناس عمير بن عدي الخطمي، وتبرّع بالقيام بهذه الجريمة النكراء، فذهب إلى بيتها في الليل وكانت ترضع صغيرها وهو كان ضريراً، فتحسّسها ثمّ أغمد السيف في صدرها حتى نفذ من ظهرها، ثمّ رجع إلى رسول الله منتصراً ويداه ملطّختان بدمها، أمّا ردّة فعل النبي فكانت بغاية البرود حيث قال "لا ينتطح فيها عنزان".
أليس هذا هو حال المفكّرين الأحرار في عالمنا العربي اليوم؟ ألا يحكم بالموت على كل من يتجرّأ ويقول الحقيقة؟ فيصعد أحد حماة الهيكل إلى المنابر وينادي مطالباً برأسه أو رأسها. كم من سالم بن عمير وعمير بن عدي الخطمي في عالمنا العربي الذين مستعدّون أن يقوموا بالعمل القذر في أية لحظة وأي مكان دون أيّ اعتبار. وهم يؤمنون أنّ هناك مكافآت وحور عين ينتظرونهم في العالم الآخر.

(٧)
الإبادة الجماعية

كان هناك ثلاثة قبائل يهودية تعيش حول وعلى مقربة من يثرب، بني قينقاع، بني النضير وبني قريظة. وكما قلت سابقاً، كانت هذه القبائل من السكّان الأصليين في المنطقة. اعتقد محمد في البداية أنه إذا كان قد استنكر الشرك وتعدّد الآلهة وعبادة الأوثان واعتنق الأنبياء المذكورين في الكتاب المقدّس، فسيهرع اليهود بلهفة لاتباعه واعتناق دينه الجديد. السور الأولى في القرآن مليئة بقصص عن موسى والروايات التوراتية. أصلاً كان محمد قد اتّخذ من أورشليم أو القدس قبلة يتوجّه إليها هو وأتباعه خلال الصلاة، على أمل أن يحتال على اليهود لنيل ولائهم. يكتب الباحث الإسلامي عرفات قائلاً: ((من المتعارف عليه بشكل عام أنّ النبي محمد في بادئ الأمر أمل أن يظهر يهود يثرب، بصفتهم أتباع ديانة سماوية، تفهّماً واستيعاباً للدين التوحيدي الجديد، الإسلام))[65]. والحال، لمفاجئته، أنّ اليهود، مثل القرشيين، لم يولوا آذاناً صاغية لندائه. وبعد أن تبخّرت أحلامه وآماله ونفذ صبره، تحوّل سلوكه نحو العدائية تجاههم. اليهود لم يكونوا على استعداد للتخلّي عن دين آبائهم وأجدادهم فقط لاعتناق دين محمد الجديد. ورفضهم هذا قد أغضبه لذلك سعى للانتقام منهم. فحادثتي اغتيال أبو عفك وأسمى لم تكونا سوى مؤشّراً لبدء حقده تجاه اليهود. وبما أنّ محمد مغرم بسلب الكرافانات والقوافل المارّة، وضع نصب أعينه ثروات اليهود في يثرب وكان يبحث عن عذر ليقوم بحركته التالية، ليغير عليهم وليضع يديه على ثرواتهم. وبدأ غضبه على اليهود يظهر في الآيات القرآنية التي ألّفها، حيث اتهمهم بالجحود لله، وقتل أنبيائهم ومخالفة شرائعهم الخاصة. حتى أنه مضى أبعد من ذلك عندما قال لأنّ اليهود خرقوا قانون السبت Sabbath، فإنّ الله مسخهم إلى قردة وخنازير[66]. وحتى يومنا هذا الكثير من المسلمين مقتنعون بأنّ القردة والخنازير هي أسلاف اليهود.

* غزوة بني قينقاع

أوّل جماعة يهودية ذاقت مرارة طعم غضب محمد كانت قبيلة بني قينقاع. فقد كانوا يعيشون في تجمّعات سكنية داخل مدينة يثرب كانت تسمى باسمهم. كانوا يعلمون في المدينة كصنّاع حرفيين، حدّادين، صاغة، سبّاكين يصنعون أثاث البيوت والمنازل بالإضافة إلى الأسلحة. والحال، أنهم لم يكونوا مهرة في فنون القتال والعسكر وتركوا الأمر برمّته للعرب من أهل المدينة، وكانت تلك خطيئة أثبتت في النهاية أنها قاتلة ومزيلة لوجودهم. كان بنو قينقاع حلفاء لقبيلة بني الخزرج من العرب ودعموهم في صراعاتهم مع القبيلة العربية المنافسة، الأوس.

لقد جاءت الفرصة المناسبة لغزو هؤلاء اليهود عندما جرت مناوشة بين مجموعة من اليهود والمسلمين. عندما قام رجل من بني قينقاع برفع تنورة امرأة مسلمة وهي جالسةً القرفصاء وتعليقها بدبّوس على الأرض داخل متجر للمجوهرات في سوق بني قينقاع. وعندما قامت المرأة، انقطعت تنورتها وسقطت عنها ممّا كشف عورتها. رجل

---

[65] من مجلّة المجتمع الملكي الآسيوي لبريطانيا العظمى وإيرلنده، 1976، صـ 100-107، دبليو. ن. عرفات.

[66] القرآن: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة 65 :2]
{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} [المائدة 5: 60]
{فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف 7: 166]

مسلم كان ماراً بالقرب من المتجر، فشاهد الموقف وقفز على اليهودي ثمّ قتله. وما كان من أقرباء اليهودي إلا أن قتلوا المسلم أخذاً للثأر.
هذه هي الفرصة التي كانت ينتظرها محمد لانتهازها. فبدلاً من أن يحاول تهدئة النفوس وتسوية الوضع، لام اليهود جميعهم على هذه الحادثة وأمرهم إمّا باتباع دينه أو فليواجهوا الحرب. ردّ اليهود على تهديدات محمد بالرفض والتحدّي ثمّ أغلقوا على أنفسهم داخل تجمّعاتهم. أمّا محمد بدورهم فحاصرهم، قطع عنهم المياه، وتوعّد بقتلهم جميعاً.
في القرآن كرّر محمد تهديده {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران 3: 12] بينما كان يتفاخر كيف أنه هزم قريش، سابقاً في معركة بدر.
بعد أسبوعين، حاولت القبيلة التفاوض مع محمد لاستسلامها، لكنّ محمد رفض ولم يقبل التفاوض. لقد أراد ذبحهم جميعاً. عبد الله ابن أُبَي، الزعيم الموقر والأب الفعلي للخزرج، أمسك بياقة محمد وأخبره بأنه لن يسمح له بذبح حلفائه وأصدقائه من دون سبب. كان محمد مدركاً للاحترام والتقدير الكبيرين اللذان كان يوليهما بنو الخزرج لزعيمهم. فقد عرف أنهم قد يدورون حوله ويطوّقوه وهذا ما يعني هزيمة كبرى له. دفع ابن أبَي عنه ووجهه ممزوج بعلامات الغضب ووافق أن ألا يرتكب مجزرة باليهود على شرط أن يغادروا المدينة. وقد وردت هذه القصة في كتاب ابن إسحاق:
((قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوا فيما بين بدر وأحد ... فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبدالله بن أبي بن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يامحمد ، أحسن في موالي ، وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد ، أحسن في موالي ، قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم... فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلني ، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظُللا ، ثم قال : ويحك أرسلني ؛ قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ؛ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك))[67]
يضيف كتّاب السيرة أيضاً أنّ محمداً قال وهو مقطّب الجبين: ((دعهم يرحلون. لعنة الله عليهم، ولعنة الله عليه أيضاً! لذا أعفى محمد عن حياتهم وتركهم يرحلون إلى منفاهم))[68]
كان قد طالبهم بأن يترك بنو قينقاع كل أملاكهم، ثرواتهم وعتادهم الحربي، والذي خص منها لنفس الخمس ووزّع الباقي بين أتباعه. هنا اختفت القبيلة واندثرت. أمّا المؤرّخون المسلمين فإنهم يقولون بتأمّل أنّ هؤلاء اللاجئين دخلوا منطقة في سوريا حيث ظلّوا هناك لبعض الوقت ثمّ هلكوا وفنوا[69].

* غزوة بنو النضير

المرة التالية جاء دور قبيلة بنو النضير. وهي قبيلة يهودية أخرى. فيعد أن رأوا ما فعله محمد ببنو قينقاع، ناشد كعب بن الأشرف، زعيم قبيلة بنو النضير، حماية قريش وكما سبق وقلنا، فقد تمّ اغتياله.

---

[67] سيرة ابن إسحاق، صـ 363.

[68] السابق

[69] الرحيق المختوم: سيف الرحمن المباركفوري
http://islamweb.islam.gov.qa/english/sira/raheek/PAGE-26.HTM

كانت هناك حرب ثأرية (أحُد) بين المكّيين والمسلمين حيث خسر فيها الطرف الثاني. كان محمد بحاجة لتعويض تلك الخسارة وإعادة الإيمان لنفوس أتباعه بأنّ الله لم ينسهم ولم يتخلّى عنهم وسيمنحهم المزيد من الانتصارات. وكان بنو النضير هدفاً سهلاً.

المؤرّخ الباكستاني الإسلامي ومفسّر القرآن، ومنظّر إحياء النهضة الإسلامية في الوقت الحالي، المودودي، يروي القصّة على الشكل التالي:
((لبعض الوقت وبعد هذه الإجراءات التأديبية [طرد قبيلو بني قينقاع من أراضيهم وسلسلة الاغتيالات التي ارتكبت بحق شعراء يهود] ظلّ اليهود مرعوبين للغاية بحيث لم يجرؤا على ارتكاب أي خطأ أو أذى آخر. لكن فيما بعد حين قامت قريش في شهر شوال للعام الثالث للهجرة _ومن أجل الانتقام لنفسها بعد هزيمتها في بدر_ بالزحف للهجوم على المدينة بتجهيزات وعتاد كبير، ورأى اليهود أنّ هناك ألف رجل فقط خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم مقابل ثلاثة آلاف رجل من قريش، وبالرغم من أنّ 300 من المنفقين من أهل المدينة قد تخلّوا عنهم وعادوا إلى المدينة، [أتباع عبد الله بن أبَيّ، زعيم الخزرج] وبذلك فإنهم قد ارتكبوا أول خرق مفتوح للمعاهدة برفضهم الانضمام إلى نبي الله في الدفاع عن المدينة مع أنهم كانوا ملزمين على القيام بذلك))[70]

من المدهش كيف أنّ المسلمين يعتقدون أنّ اليهود كانوا ملزمين بمساعدة محمد في إشعال حرب دينية ضدّ المكيين، بغض النظر عن حقيقة أنّه طرد ونفى إحدى قبائلهم واغتال زعيمهم واثنان من شعرائهم. الحرب بين محمد والقرشيين ليس لها أيّ علاقة باليهود، وعن طريق اغتيال ناسهم وطرد بني قينقاع، قام محمد نفسه بخرق أي اتفاق كان قد عقده معهم. ومع ذلك، ولتبرير أفعاله الشريرة والخبيثة، يلقي المؤرّخون المسلمون وفقهائهم اللوم على اليهود بأنهم هم الذين خرقوا الاتفاق.

كان محمد الآن يبحث عن عذر للتخلّص من بني النضير. كانوا يمتلكون أفضل الأراضي الزراعية المزروعة في يثرب، وحدائق كبيرة من أشجار النخيل، كما أنهم وظّفوا وشغّلوا الكثير من العمالة العربية. لذلك، عدّة مسلمين، والذين أصبحوا بفضل محمد قطّاع طرق ومجرمين، قتلوا رجلين من بني كلب. ما أن حدث ذلك، وقعت هذه القبيلة معاهدة مع محمد بألا يقوم رجاله بقتل أو سرقة أهلها مقابل دعمهم له. أمّا القتلة فقد أخطؤوا الرجلين وخلطوا بينهما وبين رجال من قبيلة أخرى. الآن، كما يورد لنا التراث، كان محمد ملزماً بأن يدفع فدية لقاء دم الرجلين. وبالرغم من كل الثروة التي كان قد حصل عليها من بني قينقاع، ذهب النبي إلى بني النضير وطلب منهم أن يشاركوا في دفع فدية دم الرجلين كجزء من معاهدتهم معه. كان هذا المطلب مهيناً وجائراً، وكان محمد يأمل أن يتقاعس ينو النضير ممّا سيقدّم له العذر بأن يفعل بهم ما فعله ببني قينقاع. بأي حال، كان بنو النضير خائفين جداً من رفض مطلبه الجائر. لذا فقد وافقوا على المشاركة وانسحبوا لجمع المال. جلس محمد وأتباعه تحت حائط، ينتظرون. لم يكن هذا ما توقّعه أو تمنّاه محمد. فقد جاء يطالبهم بأكثر المطالب جوراً وظلماً، على أمل أن يبدر منهم رد فعل سلبي ويسير الأمر وفق مخطّطه. الآن، كان عليه أن يحيك صيغة أخرى، ويخرج بحجّة واستراتيجية جديدة.

فجأة انتابه "وحي" جديد. إذ وقف على رجليه ومن دون أن يقول كلمة واحدة لأصحابه ترك المكان وذهب إلى البيت. لاحقاً، عندما انضمّ إليه أصحابه وسألوه عمّا جرى له، أخبرهم أنّ الملاك جبرائيل قد أعلمه بأنّ اليهود كانوا يحيكون مؤامرة بإسقاط صخرة على رأسه من فوق الحائط الذي كانوا يستندون عليه. وبهذا العذر بدأ في التحضير لمهاجمة بنو النضير.

---

70 http://www.islamicity.com/mosque/quran/maududi/mau59.htm

لم يكن أحد من أتباع محمد قد رأى أي أحد يتسلّق الجدار أو أنّ لديه النيّة لتهديد حياتهم. بأي حال، هؤلاء الرجال، المستفيدين مادياً من أتباعه والقبول بأي شيء يقوله لهم، لم يكن لديهم أي سبب أو ميل للشكّ فيما كان يقوله لهم آنذاك.

أي شخص عقلاني يمكنه رؤية سخف وضعف رواية محمد. فإذا أراد بنو النضير حقاً قتله وتجرأوا على ذلك، فلم يكونوا بحاجة لتسلّق الجدار ليرموا حجراً على رأسه. هذا الاتهام كان خاطئاً لا محالة. فمحمد كان يرافقه مجموعة صغيرة من أصحابه، أبو بكر، عمر، علي، وواحد أو اثنان آخران على الأقل. إذ كان من السهل جداً قتلهم جميعاً، إذا كانت تلك نيّة بنو النضير.
النبي الذي كان يؤمن أنّ الله هو "خير الماكرين" [آل عمران 3: 54] كان هو نفسه رجلاً مخادعاً. فقصّة أنّ جبرائيل قد أخبره بمؤامرة اليهود لقتله هي بنفس مصداقية قصّته عن زيارته للجنّة والنار. ومع ذلك كان من السهل جرّ أتباعه وإغضابهم بهذه الرواية ممّا دفعهم لحمل السلاح والاحتشاد حوله لإراقة دماء الأبرياء.
ينهي المودودي قصّته بالقول: ((والآن لم يكن هناك أي شك بما قاله النبي، ولم يكن هناك أي مجال للتراجع. فقد أرسل لهم نبي الله إنذاراً أخيراً بأنّه علِم بفعل الغدر الذي كانوا سيرتكبونه للقضاء على حياته، وبناءً على ذلك، كان عليهم ترك المدينة والرحيل خلال عشرة أيام، فإذا تمّ اكتشاف أنّ أحداً منهم قد تأخر وبقي في حاراتهم، فسيتمّ ضرب عنقه بالسيف.)) استعرض المودودي هنا مثالاً واضحاً وبيّناً على "المنطق" الإسلامي حيث يخبرنا وببساطة قصّة خيانة محمد وغدره بوصفها حالة عادية وطبيعية للتصرّف.

بذل عبد الله ابن أَبَيّ كل ما في وسعه لمساعدة بنو النضير، لكن عندئذٍ كان تأثيره ضعيفاً جداً وكان رجال محمد معميين بتعصّبهم. لم يسمحوا لعبد الله ابن أَبَي أن يدخل خيمة محمد حيث ضربوه وجرحوا وجهه.
بعد عدّة أيام تفاوض بنو لنضير مع المسلمين لترك أرضهم والتخلّي عن كافة ممتلكاتهم لمحمد ويتركوا المدينة. بعضهم دخل سورة واستقرّ فيها والبعض الآخر ذهب إلى خيبر ليتمّ قتله بعد عدّة سنوات عندما وضع محمد نصب أعينه ذلك الحصن الأخضر والمزدهر لليهود.

مع أنّ محمد ترك هؤلاء القوم يذهبون، إلا أنّ أول فكرة طرأت بباله هي أن يذبحهم جميعاً. والاقتباس التالي من السيرة يوضّح الأمر:
((ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فهيا ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل به فيهم ، فقال تعالى " هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين " ، وذلك لهدمهم بيوتهم عن نجف أبوابهم إذا احتملوها . " فاعتبروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء " وكان لهم من الله نقمة ، " لعذبهم في الدنيا " : أي بالسيف ، " ولهم في الآخرة عذاب النار" مع ذلك . " ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ". واللينة : ما خالف العجوة من النخل " فبإذن الله " : أي فبأمر الله قطعت ، لم يكن فسادا ، ولكن كان نقمة من الله " وليخزي الفاسقين [الحشر 59]))[71].

خلال هذا الحصار، أمر محمد بقطع وحرق الأشجار التي تعود بني النضير. هذا النوع من التصرفات البربرية كان غير مقبول حتى بين العرب البدائيين. وكل ما قام به لتبرير هذه الجريمة كان في أن يجعل ربه يوافقه على ما قام به. وهذا أمر سها جداً عندما يكون لديك إله كالخاتم في إصبعك.

---

[71] ابن إسحاق، صـ 438.

{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر 59: 5]

من السهل فهم لماذا اعتبر الناس في شبه الجزيرة الصحراوية الحارقة قطع الأشجار وتسميم الآبار من الجرائم الكبرى والمشينة. هذه التصرفات البربرية كانت ضدّ الأخلاقيات والقيم العربية وروح الشعب العربي. أمّا محمد فلم يكن ملتزماً بأي تحريم أو حدود أخلاقية. لا شيء كان يمنعه من تحقيق أهدافه. كان مستعداً للتضحية بأيّ شيء وأي أحد يقف في طريقه. أمّا أتباعه فقد ترجموا قسوته تلك كعلامة على عزمه وتصميمه لتحقيق غاية وإرادة إلهيتين.

فقيه إسلامي، المباركبوري، يقول: ((حصل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كل أسلحتهم، أراضيهم، منازلهم، وثرواتهم. من بين الغنائم الأخرى التي تمكّن من الحصول عليها، كان هناك 50 درعاً، 50 خوذةً، و340 سيفاً. كانت هذه الغنيمة تخصّ الرسول بشكل خاص لأنّه حصل عليها من دون قتال. قسّم الغنيمة بحكمته الخاصّة بين المهاجرين الأوائل واثنان من الأعوان الفقراء، أبو دجانة وسهيل بن حنيف. بأي حال قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم بإنفاق جزء من هذه الثروة على عائلته لإعالتهم طوال العام. أمّا الباقي فقد أنفِق لدعم جيش المسلمين بالأدوات اللازمة لخوض حروب أكثر في سبيل الله. أغلب الآيات في سورة الحشر تصف عملية طرد اليهود وتكشف الأساليب المعيبة للمنافقين. تظهر الآيات القواعد والقوانين المتعلّقة بالغنائم. في هذه السورة، الله، القدير والعظيم، يثني على المهاجرين والأعوان الذين مدّوا لهم يد المساعدة. السورة تبيّن أيضاً مشروعية قطع وحرق أراضي العدو وأشجارهم لأغراض عسكرية. هذه الأعمال لا يمكن اعتبارها كمظهر للفساد والتخريب طالما أنها كلّها في سبيل الله))[72]

على غرار المودودي، يظهر مباركبوري الافتقار المقلق للضمير والأخلاق الظرفية التي تميّز الأمّة. فالمسلمون يقلّدون نبيّهم. فهم يعتبرون أنّ حرق ونهب ممتلكات غير المسلمين هي أفعال مشروعة في الحروب، كما أنهم أقرّوها ومارسوها من خلاله. بالنظر إلى أعمال محمد، من الإنصاف التوصّل للنتيجة أنّ العنف الإسلامي لسوء الحظ ليس انحراف عن الإسلام الحقيقي. القتل، النهب، الاغتصاب والاغتيال هي ممارسات أصيلة في الإسلام. فلا وجود لشيء زائد عن حدّه عندما يتعلّق الأمر بإعلان ونشر دين الله.

من سخرية القدر، أنّ سورة الحشر تنتهي بحضّ المؤمنين بأن يكونوا "متّقين" ومطيعين، ممّا يجعل الأمر واضحاً جداً أنّ تقوى المسلمين له معنى مختلف تماماً. يقول الفقهاء الإسلاميين أنّ القيم الأخلاقية الحالية لا يجب أن نسقطها على زمن محمد الذي عاش قبل 1400 عام. والمضحك هنا هو أنّهم يؤيّدون أنّ تلك الأخلاق والقيم هي معايير أخلاقية مطلقة وصالحة لكل زمان ومكان ويحاولون فرضها على كافة الجنس البشري وكل الأزمنة.
كتب أحد المسلمين إليّ يقول: ((هذه الرواية بكاملها كانت تشكّل إشكالية للعديد من الناس بسبب فكرتهم عن ما هو الصحيح وما هو الخاطئ أخلاقياً. فمنشأ هذا المرض يقبع مباشرةً في مركز العقلية المسيحية التي تقول "أدِر خدّك الأيسر"، و"المعاناة الافتدائية للمسيح"، كلا المفهومين كانا بمثابة أمراضاً في العقل الأوروبي لقرون طويلة))

[72] الرحيق المختوم: ذكريات عن النبي النبيل. سيف الرحمن المباركبوري. الجامعة السلفية، الهند.
http://www.alsunnah.com/nektar/11.htm

أنا لا أؤمن أنّ القيم والمبادئ الأخلاقية هي أمراض. فهي تنبع من الوعي الإنساني وبوصلتهم هي القاعدة الذهبية. فنحن نعرف الفرق بين الخطأ والصواب عندما نضع في اعتبارنا الطريقة أو السبيل الذي نحبّ أن نُعامّل به.

*** غزوة بنو قريظة**

القبيلة اليهودية الأخيرة التي سقطت ضحية النزعة الانتقامية عند محمد كانت بنو قريظة. مباشرة بعد انتهاء معركة الخندق[73]، وضع محمد نصب عينيه قبيلة بنو قريظة. فقد زعم أنّ الملاك جبرائيل قد زاره "طالباً منه أن يستلّ سيفه وأن يتوجّه إلى مساكن المحرّضين على الفتن بنو قريظة ومقاتلتهم. وقد أكّد جبرائيل أنّه، بمرافقة موكب هائل من الملائكة سيسبقه لهزّ حصنهم ويلقي الرعب في قلوبهم"[74] يكتب المباركبوري متابعاً "استدعى نبي الله من فوره المؤذّن وأمره أن يعلن حرباً عنيفة جديدة ضدّ بني قريظة"[75].

من المهم جداً، أثناء دراسة الإسلام، ملاحظة أنّ الأذان للصلاة كان أذاناً للحرب. فمشاغبات المسلمين وحروبهم دائماً ما تبدأ من الجوامع بعد تأدية صلاتهم. وهم يكونون أكثر عنفاً وفساداً خلال شهر رمضان المقدّس وأيام الجمع. فقد قال آية الله الخميني في أحد مناسبات الاحتفال بالمولد النبوي عام 1981:
((كلمة مِحراب (مسجد) تعمي مكاناً للحرب، مكاناً للقتال، ومن المحاريب، تشنّ الحروب وتستمر. وكما كانت كافة الحروب في الإسلام تنطلق من المحاريب. كان للنبي سيف يقتل به الناس. كما أنّ أئمتنا المعصومون كانوا محاربين. كلهم كانوا مقاتلين. كانوا يستخدمون السيوف ببراعة. كانوا يستخدمونها لقتل الناس. نحن بحاجة لخليفة يقطع الأيدي، يحزّ الرقاب، يرجم الناس. بنفس الطريقة التي كان يقطع فيها رسول الله الأيدي ويحزّ الرقاب ويرجم الناس.))[76]

ترأس محمد جيشاً قوامه ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثون خيالاً من الأنصار والمهاجرين. تمّ اتهام بنو قريظة بالتآمر مع المكّيين ضدّ المسلمين. في الواقع، نفس المؤرّخين المسلمين ينكرون هذه التهمة ويقولون أنّ المكيين انسحبوا من دون قتال لأنهم لم يتلقّوا الدعم من بني قريظة.

عندما أعلن محمد عن نواياه، أقسم عليّ، ابن عمّه وأكبر مناصريه، بأنه لن يتوقف حتى يقتحم حامياتهم أو يقتلهم.. استمرّ الحصار 25 يوماً. أخيراً استسلم بنو قريظة بشكل غير مشروط. أمر محمد الرجال يكونوا مغلولي الأيدي، بينما تمّ حصر الرجال والنساء وعزلهم. عقب ذلك تشفّعت قبيلة أوس، التي كانت حليفاً لبني قريظة، راجيةً محمد أن يكون رحيماً تجاههم. اقترح محمد أنّ سعد بن معاذ، وهو الشخص المتوحّش والقاسي بينهم والذي كان قد أصيب بجرح خطير بسبب سهم، أن يطلق حكمه على اليهود. كان سعد حليفاً سابقاً لبني قريظة، لكن منذ تحوّله إلى الإسلام تغيّرت مشاعره تجاههم. كما أنه لامهم على الإصابة التي كان قد تلقّاها

[73] جاء المكيون إلى أبواب المدينة _وهم محتقنون من هجمات محمد المستمرة على قوافلهم_ لمعاقبته. وبعكسه تماماً، هو الذي تعوّد على الهجمات والغارات، منحوه وقتاً كافياً للتحضير للحرب. نصحه أحد أتباعه من بلاد فارس (سليمان الفارسي) أن يحفر خنادق حول المدينة ممّا يصعّب الأمر أمام المكيين والقبائل الأخرى التي انضمّت إليه، (الاتحاد) من الدخول، ممّا أدّى على انسحابهم؟

[74] http://www.al-sunnah.com/nektar/12.htm

[75] السابق

[76] آية الله الخميني: في خطابة بمناسبة عيد المولد النبوي، عام 1981.

عندما ألقى المكيون سهماً خلال معركة الخندق. كان بمثابة حارس شخصي لمحمد وكان محمد يعرف كيف كان شعوره تجاه بنو قريظة.
كان حكم سعد أنّ "كل الرجال القادرون من الناحية الجسدية من بني قريظة يجب أن يقتلوا، وأخذ الأطفال والنساء أسرى وتقسّم ثروتهم بين محاربي المسلمين".
سُرّ محمد لهذا الحكم القاسي وقال بأنّ "سعداً قد حكم بأمر الله"[77]. كان الله في أغلب الأحيان يصدّق قراراته. هذه المرة اختار سعد ليجسّد نزواته.
يضيف المباركبوري أنّ ((في الواقع، كان اليهود يستحقّون ذلك العمل التأديبي بحقهم مقابل الضغينة الفظيعة التي كانوا يحملونها للإسلام، والترسانة الضخمة التي كانوا قد كدّسوها، والتي اشتملت على ألفٍ وخمسمائة سيف، ألفا رمح، ثلاثمائة درع وخمسمئة واقية، وكلّها أصبحت من نصيب المسلمين)).
ما يتناساه المباركبوري هو أنّ بنو قريظة أقرضوا أسلحتهم بالإضافة إلى مجارفهم وأدواتهم للمسلمين ليتمكّنوا من حفر الخندق والدفاع عن أنفسهم. لم يقدّم المسلمون الشكر والامتنان أبداً إلى هؤلاء الذين ساعدوهم. فهم سيقبلون مساعدتك ثمّ يطعنوك في ظهرك في اللحظة التي لم يعودوا بحاجة إليك. وسنرى في الصفحات التالية سيكولوجية هذا المرض.

كان المؤرّخون المسلمون سريعين جداً في اتهام بنو قريظة بالتهم العارية عن الصحة والعادية لتبرير المذبحة التي ارتكبوها بحقهم. اتهموهم بالأذى، بالعصيان، بالغدر، والتخطيط والتآمر ضدّ الإسلام. بأي حال، ليس هناك أي تفصيلات أو تحديدات لطبيعة تلك الذنوب لضمان مثل هذا العقاب القاسي والجائر وإبادتهم الجماعية. حفرت الخنادق في بازار المدينة وحوالي 600 إلى 900 رجل قطعت رؤوسهم وتمّ دفنهم في تلك الخنادق.

حُيَي بن أخطب، زعيم قبيلة بنو النضير الذي أخذ محمد ابنته المتزوّجة، صفيّة، كغنيمة له عندما غزا خيبر، كان من بين المأسورين. تمّ اقتياده حتى أمام المنتصر ويديه مقيدتان خلف ظهره. وفي مواجهة جريئة رفض محمد وفضّل الموت على الاستسلام والخضوع لهذا الرجل العنيف. فقد أكِر بأن يركع ثمّ ضرب رأسه فوراً على مرأى من الجميع.

أمّا الطريقة التي جرى من خلالها تحديد من يجب أن يقتل، تمّ فحص الصغار والشبّان. فهؤلاء الذين كان شعر عانتهم نابت تمّ اقتيادهم مع الرجال وقطع رؤوسهم. عطية القرظي، يهودي نجى من هذه المذبحة روى لاحقاً:
((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يُقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم ، وكنت غلاما ، فوجدوني لم أُنبت ، فخلوا سبيلي))[78].

قتل محمد ونفى العديد من القبائل اليهودية، ومن بينهم بني قينقاع، بني النضير، بني قريظة، بني المصطلق، ويهود خيبر. على فراش موته، أمر أتباعه بتطهير شبه الجزيرة العربية من كافة المشركين والكفّار[79]، وهو أمر عمل تطبيقه وتنفيذه بإخلاص الخليفة الثاني للمسلمين عمر بن الحطّاب. لقد عمل على إبادة اليهود، المسيحيين، والوثنيين، مجبراً إياهم على تغيير دياناتهم، أو طردهم أو قتلهم.

---

[77] سنن أبو داؤود 38، 4390.

[78] صحيح البخاري، ج4، 52، 288.

[79] السابق، ج4، 52، 176.

والآن، بعد أن أصبح ثرياً بفضل السلب والنهب، أصبح محمد كريماً وسخياً على أولئك الذين آمنوا به. فقد روى أنس في صحيح البخاري أنّ الناس كانوا يقدّمون بعض التمر والبلح للنبي كهدية، حتى فتح بني قريظة وبني النضير، حيث أعاد لهم معروفهم[80].

هناك آية في القرآن تتحدّث عن المجزرة التي ارتكبها محمد ببني قريظة تبارك ذبح رجالها وأسر أولادها ونسائها كمساجين.
{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا} [الأحزاب 33: 26]

[80] السابق، ج4، 52، 176.

(٨)
التقيّة: الكذب المقدّس

في الحلقات الماضية، شاهدنا كيف أنّ محمد سمح لرجال بالكذب، حتى ولو سبّوه وشتموه، لينالوا ثقة ضحاياهم كي يسهل اغتيالهم. هناك العديد من القصص والروايات الأخرى عن المسلمين الذين ينخرطون في صداقة مزيّفة مع غير المسلمين، وذلك من أجل قتلهم ما أن ينالوا ثقتهم.

في الحديبية، وقّع محمد معاهدة مع المكّيين، واعداً إياهم أن يعيد إليهم كل صغارهم وعبيدهم الذين هربوا وانضمّوا إليه. وقد روى ابن إسحاق رواية أبو بصير، وهو مكّي، الذي ذهب إلى محمد بعد توقيع المعاهدة. وقد أرسل المكّيون رجلين يحملان رسالة ليذكّروه بوعده, شعر محمد بالإحراج ووجد نفسه مضطرّاً لأن يقول لأبو بصير ((يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا)) فهم أبو بصير الإشارة. وعاد مع الرسولين. فابتعدوا حوالي ستّة أميال من المدينة، عندما أوقفوهم رجال كي يرتاحوا. قال أبو بصير ((أرنى أنظر إليه)) عندها أعطاه. أبو بصير استلّ السيف وضربه به حتى قتله. ثمّ عاد إلى محمد وقال ((يا نبيّ الله؛ قد واللهِ أوفى الله ذِمَّتك، قد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم)) لم يعاقب محمد القاتل بل أمره أن يذهب إلىَ العيص، وهو منطقة شاطئية، على الطريق الذي تمرّ فيه قوافل قريش إلى سوريا وأن يسرق تلك القوافل. كان محمد قد وقّع اتفاقية بألا يقطع الطريق على القوافل القرشيّة، لذا فقد وجد طريقة للتلاعب والالتفاف على المعاهدة. يقول ابن إسحاق: ((وسألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرحامهما ألا أدخلت أبا بصير وأصحابه فلا حاجة لنا بهم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بصير أن يقدم ويقدم أصحابه معه فجاءه الكتاب وهو يموت فجعل يقرأه فمات وهو في يده فقبره أصحابه هناك وصلوا عليه وبنوا على قبره مسجدا وأقبل أصحابه إلى المدينة))[81].

إنّ تاريخ الإسلام مليء وملطّخ بالخيانة والخداع. هؤلاء الرجال كانوا مسلمين وفوق ذلك إنهم كانوا مسؤولية محمد. أمّا ما قام به هو أنه غسل يديه منهم عن طريق إرسالهم إلى مكانٍ آخر لسرقة المكّيين. لقد قبل وحتى أنه شرّع سرقاتهم. وبالرغم من ذلك، يدّعي المسلمون أنّ المكّيين هم الذين خرقوا المعاهدة. والقصة التالية هي مثال آخر أيضاً:
عندما نال المكيون كفايتهم، كما هو حال باقي القبائل العربية، من هجمات محمد وجرائمه، اجتمعوا فيما بينهم لمعاقبته. على أية حال، وعلى عكس محمد، التي لم يكن يعلن خططه وتخطيطاته وكان ينصب الكمائن لضحاياه من دون أيّ إنذار، حذّر غير المسلمين خصمهم ليهيئ نفسه للمعركة. وقد منح هذا محمد المزيد من الوقت ليحفر خندق حول المدينة. الجيش المشترك للعرب، الذي يعرف بالأحزاب، عسكر خارج المدينة محاولين إيجاد طريقة لاجتياز الخندق. سألوا بني قريظة لمساعدتهم. كان محمد قلقاً من هذا التحالف. لذا ابتكر خدعة ماكرة لزرع الانشقاق والشكّ بين بنو قريظة والحلفاء. كان هناك رجل يدعى نُعَيم قد تحوّل مؤخّراً إلى الإسلام، على أي حال لم يكن قد أعلن إسلامه بعد. استدعاه محمد وقال له "ما استطعت أن تخذل عنا الناس فخذل، فالحرب خدعة"
أمّا التالي فهو بقية القصّة كما رواها ابن إسحاق:
(([فعل نعيم ما كان قد أمره به محمد] فذهبت إلى بني قريظة فقلت اكتموا عني قالوا نفعل فقلت إن قريشا وغطفان على الانصراف عن محمد عليه السلام إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا استمروا إلى بلادهم فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا قالوا أشرت بالرأي علينا والنصح لنا ثم خرج الى أبي سفيان بن حرب فقال قد جئتك بنصيحة فاكتم عني قال أفعل قال تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد عليه

---

[81] أورد هذه القصة أيضاً الطبري في تاريخه، ج3/1126.

السلام وأرادوا إصلاحه ومراجعته أرسلوا إليه وأنا عندهم إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلا من أشرافهم نسلمهم إليك تضرب أعناقهم ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك وترد جناحنا الذي كسرت الى ديارهم يعني بني النضير فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهنا فلا تدفعوا إليهم أحدا واحذروهم ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وكان رجلا منهم فصدقوه وأرسلت قريظة إلى قريش إنا والله ما نخرج فنقاتل معكم محمدا صلى الله عليه وسلم حتى تعطونا رهنا منكم يكونون عندنا فإنا نتخوف أن تنكشفوا وتدعونا ومحمدا فقال أبو سفيان هذا ما قال نعيم وأرسلوا إلى غطفان ما أرسلوا إلى قريش فقالوا لهم مثل ذلك وقالوا جميعا إنا والله ما نعطيكم رهنا ولكن اخرجوا فقاتلوا يهود نحلف بالتوراة ان الخبر الذي قال نعيم وجعلت قريش وغطفان يقولون الخبر ما قال نعيم ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء وهؤلاء من نصر هؤلاء واختلف أمرهم وتفرقوا فكان نعيم يقول أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه وأنا أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم على سره وكان صحيح الإسلام بعد ذلك))[82].

لقد نجحت الخطّة. عندما طلب الأحزاب بنو قريظة أن ينضمّوا إليهم كي يشنّوا الهجوم، قاموا باختلاق عذر ثمّ طالبوا بأنّ تترك قريش معهم عدداً من رجالهم كرهائن، والذي أكّد أقوال نعيم. عندها خُذِل الأحزاب وتفرقوا وعادوا من دون معركة.

هذه الخدعة أنقذت المسلمين من هزيمة محقّقة. وقد احتفظ المسلمون بهذه القصّة كدرس للأجيال القادمة، الذين منذ تلك اللحظة اعتمدوا الخيانة والخداع كاستراتيجية لدعم الجهاد واستمراريته.
يأتي المسلمون الملتزمون إلى الغرب ويدّعون بأنهم معتدلين ومتسامحين. إنّهم يقولون أيّ تريده سماعه لكنّهم في السّرّ يخطّطون لتدميرك وإسقاطك. إنهم يبتسمون، ودودن ومحبوبون، حتى أنهم يتظاهرون بأنهم وطنيّون. على أيّة حال، هدفهم الوحيد هو جعل الإسلام سائداً ورؤيته مسيطراً على العالم أجمع. إنهم يتحدّثون كما تريد، لكنهم يشعلون الكاز تحتك.

اعتماد الكذب والخداع والنفاق كاستراتيجية في سبيل تقدّم الإسلام يطلق عليه اسم "التقيّة"، أو الخداع المقدّس. وتحت شعار التقية، يسمح للمسلم أن يكذب ويقول أي شيء لذرّ الرّماد في عيون غير المسلمين وخداعهم.

أحد أهمّ الأهداف الرئيسية، والتكتيكات الدائمة لهؤلاء الذين يبرعون في التقيّة، هو التلاعب وتهدئة مشاعر الخوف من الخطر والتهديد الإسلامي. والهدف هو خداع الضحايا المحتملة التي لم يتوجّه إليها الجهاد بعد.
في كتابه الذي يحمل عنوان ((لا إله إلا الله)) ينخرط ريزا أصلان في هذا الفنّ الإسلامي المخادع، وعندما يقول ((الذي نراه في العالم الإسلامي اليوم هو صراع داخلي بين المسلمين، وليس صراعاً خارجياً بين الإسلام والغرب)). ويتابع قائلاً في كتابه ((الغرب بالكاد يعتبر متفرّجاً، غافل بالرغم عن ذلك عن الصراع والتنافس الذي يجتاح الإسلام حول من سيكتب الفصل التالي من القصّة))[83].

[82] ابن إسحاق، سيرة رسول الله، غزوة الخندق.

[83] http://www.nytimes.com/2005/05/04/books/04grim.html?_r=1&ex=1115784000&en=7961034fe8ef20c0&ei=5070&oref=slogin

عفواً يبدو أننا نحن الذين بنينا مدينة نيويورك، البنتاغون، لندن، مدريد، وبسلان على خط النار بين المسلمين. ينخرط السيد أصلان في الشكل الأكثر صفاقةً للخداع والكذب الإسلامي ومع ذلك، تمّت دعوته من قبل مذيع محطّة السي إن إن CNN أندرسون كوبر ليعلّق على زيارة البابا على تركيا، وكأنه مراقب غير متحيّز.

إنّ الكذبة التي غالباً ما يقولها الرجال المسلمون لإغراء النساء الغربيات هي: ((النساء في الإسلام يتمّ التعامل معهنّ كالملكات)) ومع ذلك أرى بلداناً حيث يطلق على ملكاتها ناقصات عقل، مضروبات، مرجومات، وقتيلات الشرف.

عندما يبتسم لم المسلم الملتزم، ويخبرك كم يجبّ بلدك وكم يريد أن يكون صديقك، تذكّر الحديث التالي جيداً:
((إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!))[84]

---

[84] صحيح البخاري، كتاب الآداب، 5979.

(٩)
سجل محمد النفسي: ميراث النرجسي

على فراش موته، أوصى محمد أتباعه أن يستمرّوا ويتقدّموا في جهادهم. جنكيز خان أعطى نفس الأمر لأبنائه وهو على فراش موته. كان قد أخبرهم أنّه كان يرغب بغزو العالم، لكن بما أنه لن يستطيع تحقيق حلمه، فيجب عليهم أن يعملوا جاهدين لتحقيقه. المغول، كالمسلمين، كانوا مروّعين. فبالنسبة للنرجسيين، كل تلك المسائل تتحصر بمسألة الفوز أو النصر. فهم لا يملكون أي ضمير. فحياة الآخرين بالنسبة لهم رخيصة ولا قيمة لها بتاتاً.

في عقده السادس أصبح هتلر مدركاً للرجفة التي أصابت يده اليسرى. وكان يخفيها عادةً مع تقدّم المرض، وحاول البقاء بعيداً عن العامّة. أدرك أن الموت أخذ يقترب منه. أصبح أكثر حزماً وقسوةً، يطلق حملاته بإحساس متجدّد من الاضطرار، وكان يعلم حق العلم أنه في سباق محموم مع الزمن. النرجسي يرغب بأن يخلّف ميراثاً. من الخطأ النظر إلى الإسلام كدين. السّمة الروحية للإسلام تمّ اصطناعها لاحقاً على يد الفلاسفة المسلمين الذين أعطوا تفسيرات باطنية وروحية لكلمات محمد. فقد شكّل أتباعه الدين حسب ميولهم، ومع مرور الوقت، اكتسبت تلك التفسيرات ختم العصر القديم ومصداقيته.

فلو أنّ الإسلام دين، عندها ستكون النازية كذلك، والشيوعية، الشيطانية، جماعة بوّابة السماء، جماعة المعبد، إلخ. إذا كنا ننظر إلى الدين كفلسفة في الحياة للتعلّم، وتحضّر الجنس البشري وإخراج كافة إمكانياته وطاقاته الإنسانية، ولتصعيد الجانب الروحي عند البشر، وتحفيز الروحانية بداخلهم، لتوحيد القلوب وتنوير العقل البشري، عندها سيفشل الإسلام تماماً أمام ذلك الاختبار. لذلك، ومن خلال هذا المقياس، فالإسلام ليس _ولا يجب_ أن يعتبر ديناً.

* النرجسي يريد أن يكون إلهاً

بالنسبة للنرجسي، الشيء الوحيد الذي يهمّه هو حيازته للقوة في النهاية. يريد أن يكون محترماً، ملحوظاً، ولا يمكن تجاهله. النرجسيين هم أشخاص يشعرون بالوحدة، وعدم الأمان أو الاستقرار، والعار. هم يعلمون تماماً أنه من خلال إسقاط أنفسهم كقادة ثوريين، روّاد الأمل وقادة القضايا العظمى حتى أنهم يمكنهم أن يجذبوا أنصاراً وأتباعاً كالذباب على قطع الحلوى. القضية لا قيمة لها. فهي بالكاد مجرّد عذر أو سبب. النرجسي يخترع آلهة خيالية وقضايا عظيمة. وكلّما رفعوا من شأن آلهتهم المزيّفة ومجّدوا قضاياهم أكثر، كلّما اكتسبوا قوّةً وقدرة لأنفسهم.

كان الله بالنسبة لمحمد أداة إقناع. فمن خلاله، بمكنه فرض سيطرة غير محدودة على أتباعه وأن يصبح سيد حياتهم. هناك إله واحد، مخيف بقدر ما هو كريم ومتسامح، وهو _أي محمد_ كان ممثّله الوحيد والأوحد. ممّا جعلته إلهاً بالتوكيل. ومع أنه كان من المفترض أنّ الطاعة تتدفّق عليه من عند الله، إلا أنّ كل ما كانوا يعملون على إرضائه هو نزعات محمد. يفسّر فاكنين هذه الآلية في مقالته "في سبيل المحبّة الإلهية: النرجسيون والدين"[85]

---

[85] “For Love of God – Narcissists and Religion”, by Dr. Sam[1] Vaknin, at http://samvak.tripod.com/journal45.html (no date given) (accessed June 22, 2007), first published in “Narcissistic Personality Disorder” Topic Page on Suite 101, also appearing in Malignant Self Love – Narcissism Revisited.

((كل ما يريده النرجسي هو أن يصبح إلهاً: مطلق القدرة، مطلق العلم، كلّي الوجود، محترم، محور الحديث، والملهم الرهيب. "الله" God هو حلم النرجسي الجميل، خياله النهائي المتضخّم. لكن يمكن الاستفادة من الله بطرق أخرى. النرجسي _وبالتناوب_ يؤلّه ويقلّل من قيمة شخصيات السلطة والمرجعيات...
في مرحلة التأليه، يجاهد لمحاكاتهم، إنه يحترمهم، يقلّدهم (في أغلب الأحيان بسخافة)، ويدافع عنهم. إنهم لا يخطئون، ومعصومون. يعتبرهم النرجسي أكبر من الحياة نفسها، عظماء، علامات، ومثاليين. لكن مع إصابة النرجسي وتوقّعاته بحالة إحباط شديدة، نلاحظ أنه يبدأ بالتقليل من قيمتهم...

الآن هم مجرّد بشر (بالنسبة للنرجسيين، مصطلح لا قيمة له). إنهم ضئيلون، ضعفاء، خطّاؤون، جبناء، أغبياء، خبثاء، ومتوسّطون. والنرجسي يمرّ بنفس الحلقة بعلاقاته مع الله، الشخصية المثالية التي تمثل السلطة.
لكن غالباً، حتى حين تتحطّم تلك التماثيل والأوهام، يستمرّ النرجسي على التظاهر بعبادة الله واتباعه. يحافظ النرجسي على الخديعة لأنّ قربه المستمر من الله يمنحه سلطة. الكهنة، زعماء الجماعات والطوائف، الوعّاظ، المبشّرين، أعضاء الطوائف، الساسة، المفكّرين _ كلّهم يستمدّون سلطتهم من علاقتهم المتميّزة والمزعومة مع الله. السلطة الدينية تسمح للنرجسي بالانغماس في ممارسة كرهه للنساء بشكل علني ومفتوح... النرجسي الذي يكون الدين هو مصدر سلطته يبحث عن الطاعة والعبيد المطيعين الذين يستطيع أن يمارسهم عليهم سيادته وسلطته بشكل كلي وتام. النرجسي يحوّل حتى أكثر المشاعر الدينية صفاءً ونقاءً إلى طقوس طائفية وتراتبية مقيتة. فهو يتغذّى على السذّج. ويتحوّل قطيعه إلى رهائن عنده.

السلطة الدينية أيضاً تضمن استمرار الدعم النرجسي للنرجسي. فزملاؤه الدينيون، أعضاء فرقته، أبرشيته، جمهوره، مشاهديه_ تحوّلوا إلى مصادر وفيّة، مطيعة، وثابتة للدعم النرجسي. إنهم يطيعون أوامره، يجتنبون نواهيه، يتبعون مذهبه، يحترمون شخصيته، يهتفون لميزاته الشخصية، يشبعون حاجاته (وحتى حاجاته الجسدية الشهوانية أغلب الأحيان)، يوقّرونه ويعبدوه.

علاوة على ذلك، كون المرء جزء من "شيء أكبر" هو أمر مرضٍ جداً نرجسياً. كونه جزء من إله، أن يكون مغموراً في عظمته، مختبراً قوّته وبركاته التي تمثّل المصدر الأصلي، يتّحد به _هذه كلّها هي مصادر للدعم النرجسي اللامتناهي. فالنرجسي يصبح الله عن طريق إطاعة أوامره، اتباع تعليماته، حبّه، الخضوع لإرادته، الاستسلام له، والاندماج معه _أو حتى تحدّيه (كلّما كان عدوّ النرجسي أكبر، كلّما شعر النرجسي بفخامة أكبر).
كأي شيء آخر في حياة النرجسي، فإنه يمسخ الله إلى نرجسي مقلوب. إذ يصبح الله مصدره الأساسي للدعم. فهو يشكّل علاقة شخصية مع هذا الكيان الغامر والبالغ القوة، وذلك لكي يغمر ويسيطر على الآخرين. يصبح إلهاً بشكل مفوّض، عن طريق الوكالة التي منحه إياها إلهه. إنه يُوَثّن الله، ثمّ يقلّل من مكانته، ثمّ يستغلّه أيّما استغلال. هذا هو النمط النرجسي الكلاسيكي وحتى الله نفسه لا يستطيع الهروب منه))[86]

النرجسيون لا يرقّون أنفسهم بشكل تلقائي. إنهم يختبئون وراء غطاء من التواضع، بينما يرفعون إلههم، إيديولوجيتهم، قضيتهم أو دينهم، وكل هذه الأمور في الحقيقة ما هي إلا أناهم البديلة. قد يقدّمون أنفسهم على أنهم مجرّد رسل، بسطاء، متواضعين، أو منادون متواضعون لهذا الإله القوي والجبّار أو ذاك، أو علّة أو غاية كلّي، لكنهم يوضّحون أنهم هم الوحيدون الذين يعرفون العلّة وأنهم غير متسامحين أو رحماء تجاه المنشقين والمتمرّدين المارقين.

[86] “For Love of God – Narcissists and Religion”, by Dr. Sam Vaknin, Ibid

قد يكون النرجسي قاسٍ وعات، لكنه ليس بغبي. إلا أنهم واعين جداً للأذى الذي يسببونه. إنهم يستمتعون بالقوةّ التي يحصلون عليها من إلحاق الأذى بالآخرين. إنهم يستمتعون بكونهم آلهة _يقرّرون من سيكافأ ومن سيعاقب_ من يجب أن يعيش ومن يموت. الباثولوجية النرجسية تفسّر كل شيء كانه محمد _قسوته، جبروته، ادّعاءاته التي لا أساس لها بالفخامة، أفعاله التي تظهر الكرم لإثارة إعجاب أولئك الذين أذعنوا له ولتأسيس تفوّقه وسلطانه، وتأمينه الذاتي، بالإضافة إلى شخصيته الساحرة والكاريزماتية.

*** ما سبب النرجسية؟**

الطفل الذي يشعر بأنه أدنى درجة وأوضع، بسبب رفض اجتماعي ما حقيقي أو تخيّلي، سيحاول تعويض شعوره بالوضاعة عن طريق آلية عصبية لا شعورية، والتي أطلق عليها العالم النفساني الرائد أدولف آدلر اسم "عقدة الشعور بالعظمة". وتنصّ هذه العقدة على المبالغة في تعظيم إنجازات المرء والحطّ من شأن أي شخص آخر يعتبره النرجسي تهديداً له.

الأبوّة التي تشوبها الأخطاء والعيوب تعتبر من أكبر الأسباب المساهمة في تشكيل اضطراب الشخصية النرجسي. على سبيل المثال، الآباء المتسامحون الذين يمتدحون أطفالهم بإفراط، يفرطون في إمتاعهم، يغدقون عليهم الهدايا، ويخفقون في فرض السيطرة والانضباط الكامل على أطفالهم، ثمّ يؤلّهونهم هم بذلك يسيئون لشخصية الطفل مثل هؤلاء الأهل الذين يسيئون إليهم بالضرب، بالإهمال أو الاعتداء عليهم جنسياً. كنتيجة لذلك، يشعر النرجسي عموماً غير مجهّز للطفولة. لقد نشأ وهو يحمل في رأسه نظرة غير واقعية للعالم من حوله. وبالمقابل، فالطفل الذي لم يتلقّ دعماً وتشجيعاً كافيين قد يطوّر أيضاً شخصية نرجسية.

نحن نعلم أنّ محمد تمّ إبعاده خلال طفولته لتربيه امرأة غريبة. هل فقدت أمّه اهتمامها به؟ لماذا رفض الصلاة عند قبرها عندما تجاوز الستين من عمره؟ هل ظلّ حاقداً عليها حينها؟

لم تكن حليمة ترغب بأخذ الطفل محمد لأنّه كان يتيماً لأرملة فقيرة والأجر لم يكن مناسباً. هل أثر ذلك على الطريقة التي عاملته فيها هي أو عائلتها؟ يمكن للأولاد أن يكونوا قساةً. فأن يكون المرء يتيماً في تلك الأيام معناه ندبة، كما الأمر في الزمن الحالي في بعض البلدان الإسلامية. فالوضع الذي عاش فيه محمد طفولته لم يكن مكرّساً لبناء احترام صحي وطبيعي للذات.

جون ماردي هورفيتز، مؤلّف كتاب "متلازمة الاستجابة للإجهاد Stress Response Syndromes" يفسّر: ((عندما يكون المصدر الذي يأتي منه الرضا النرجسي الاعتيادي معبوداً، مبجّلاً، ويمنح معاملة خاصة، ويواجه تهديداً ما، فقد تكون النتيجة إحباطاً، وسواساً قهرياً، قلق، عار، نزعة للتدمير الذاتي، أو الغضب تجاه أي شخص آخر يمكن إلقاء اللوم عليه في أوقات الأزمة والمشاكل. إذ يمكن للطفل أن يتعلّم تجنّب هذه الحالات العاطفية المؤلة عن طريق اكتساب مزاج نرجسي في معالجة المعلومات))[87]

طبعاً، مرّ محمد بفترة طفولة مؤلة وصعبة. ففي سورة الضحى 93 الآيات من 3 إلى 8 {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا

[87] Jon Mardi Horowitz – Stress Response Syndromes: PTSD, Grief, and Adjustment Disorder" New Jersey:Jason Aronson Inc., Third Edition, 1997, ISBN-10: 0765700255, ISBN-13: 978-0765700254

فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى} نراه يتذكّر برقّة يتمه خلال فترة طفولته الوحيدة ويطمئن بأنّ الله سيكون رحيماً وأنه لن ينساه ويتخلّى عنه. وهذا يظهر مدى الألم الذي تسبّبه له ذكرى طفولته الوحيدة. فحقيقة أنه خلق عالماً خيالياً ليهرب إليه من الواقع، عالم واضح جداً ونشيط لدرجة أنه أخاف والداه بالتربية، هي علامة أخرى على أنّ طفولته المبكرة كانت بعيدة تماماً عن السعادة والسرور.
محمد ربّما لم يتذكّر تفاصيل الذي حدث معه خلال السنوات الأولى من حياته، لكن من الواضح أنه حمل الندوب النفسية خلال بقية أيام حياته. بالنسبة له، كان العالم الخيالي الذي خلقه حقيقياً. كان ملجأً آمناً، مكاناً سعيداً للانسحاب والهروب إليه من الواقع. في هذا العالم الخيالي، يمكنه إيجاد الحب، الاحترام، القيمةّ، القوة، الأهمية، وحتى هيبة. يمكنه أن يكون أي شيء يريده ويعوّض قلّة الانتباه والاهتمام التي كان ينالها من العالم الخارجي.

وفق ما قاله فاكنين: ((السبب الحقيقي للنرجسية ليس مفهوماً بالكامل إلا أنه حتماً يبدأ خلال المراحل المبكرة للطفولة (قبل عمر الخامسة). ويعتقد أنّ سببه سلسلة من حالات الفشل المتكرّرة والجدية من جهة هدف الطفل الأساسي (أهله أو الأشخاص الذين يرعوه). النرجسيون البالغون غالباً ما يأتون من بيوت حيث تعرّضوا للإهمال أو التجاهل أو الإساءة الشديدة من قبل أحد الوالدين أو كلاهما... كل الأطفال (السليمين وغيرهم) عندما لا يسمح لهم القيام بأي شيء من قبل أهلهم سيدخلون معظم الأحيان في حالة نرجسية حيث يرون أنفسهم ويتصرّفون بطريقة تشعرهم بأنهم أقوياء. وهذا أمر طبيعي وصحّي حيث أنه يمنح الطفل الثقة اللازمة للعودة من حالة الرفض الأبوي بالثقة في النفس))[88]

الأطفال المُهمَلين يستلهمون شعوراً بعدم الملائمة. إذ يعتقدون أنهم لا يستحقون الحب والاحترام والاهتمام. وكردّ فعل على ذلك، يميلون للدفاع عن أناهم من خلال نفخ وتضخيم أنفسهم. فهم يرون نقاط ضعفهم الخاصّة ويشعرون أنّه لو تمكّن الآخرون من رؤيتها، فإنهم لن يكونوا محبوبين ومحترمين. لذا فإننا نراهم يكذبون ويخترعون قصصاً وروايات خيالية ويتبجّحون حول أهميتهم وقيمتهم الذاتية. قوّتهم الخيالية غالباً ما تتولّد عن مصدر خارجي. قد يكون والدهم أو صديق قوي لهم. هذا النمط من النرجسية عند الأطفال طبيعي جداً، لكن إذا احتفظوا بهذه الأفكار لاحقاً وأخذوها معهم إلى مرحلة الرشد، فإنها تتحوّل إلى اضطراب الشخصية النرجسية. كان صديق محمد الخيالي هو الله. وكان الصديق الأقوى، الأعظم، والأكثر هيبة. ومن خلال ربط نفسه مع الله وتقديم نفسه كوسيطه الوحيد، فإنّه جسّد قوةّ الله كلها.

بعد موت والدته، عندما كان محمد في سنّ السادسة، عاش تحت رعاية جدّه العجوز، الذي دللّه وأفرط في دلاله. وكما تظهر عدّة أحاديث، كان عبد المطّلب متسامحاً للغاية. فقد أفرط في تدليل حفيده اليتيم. فقد كان يسمح لمحمد بالجلوس على بساطه في حين أنّ أبناءه كان يجلسون حوله بشكل توقيري.

ادّعاء محمد أنّ عبد المطّلب قد تبصّر عظمته ومكانته من الواضح أنها من تلفيق خياله. فهي مجرّد كذبة مدبّرة وقد جرى تصديقها على الأرجح. وبالرغم من ذلك، من الواضح أنّ عبد المطّلب أشعر محمد بأنه متميّز. فقد دلّل وأحبّ حفيده اليتيم. لذا فالرجل العجوز قد أفسده بدافع الشفقة. بأي حال، ترجم محمد تلك الرعاية الزائدة والاهتمام الزائد إلى كتأكيد لعظمته. فالصورة التي ألقاها على نفسه في عالمه الخيالي خلال طفولته عزّزها جدّه الذي أفرط في تدليله ورعايته. فقد كان معروفاً بأنه استثنائي، فريد، متميّز، له مكانة خاصّة.

---

[88] جي. دي. ليفين ورونا ويس: ديناميكيات وطرق معالجة الإدمان على الكحول.
J. D. Levine and Rona H. Weiss. The Dynamics and Treatment of Alcoholism. Jason Aronson, 1994

بعد وفاة عبد المطّلب، عامله عمّه طيّب القلب أبو طالب بطريقة مختلفة عن باقي أولاده. فوضعه كيتيم، مع وجود أخوة من حوله، استدعى شفقة وتعاطفاً. إلا أنّ كلا من جدّه وعمّه قد فشلا في فرض تربية وانضباط كافيات عليه. كل هذه النهايات ساهمت في تطوير شخصيته النرجسية.
يكتب العالمان النفسانيان جي. دي. ليفين ورونا ويس ما يلي:
((تماماً كما نعرف، من وجهة نظر العالم النفساني،، أنّ الطفل يحتاج إلى أن يعطى بعض الأطعمة المعيّنة، كما أنه من الضروري أن يكون محمياً ضدّ درجات الحرارة العالية، وأنّ المناخ أو الجوّ الذي يتنفسه يجب أن يكون محتوياً على كميات كافية من الأكسجين، إذا كان المراد أن يكون جسمه قوياً ومعافى، وما نعرفه أيضاً، من وجهة نظر علم نفس الأعماق، أنه يتطلّب بيئة عاطفية، وخصوصاً، بيئة تستجيب لـ (1) حاجته إلى أن يكون له حضور مؤكّد بوهج السرور الأبوي و (2) حاجته للاندماج إلى الهدوء المطمئن للراشد القوي، إذا كان المراد أن يكتسب شخصية قوية ومرنة))[89].

شعر محمد بالإهمال والهجر خلال السنوات الأولى من طفولته، ثمّ الدلال والتسامح بعد ذلك. ظروفه لذلك كانت ناضجة وباعثة لتكوين شخصيّة نرجسية.
ليس هناك أي دليل أو حديث يشير إلى أنّ محمداً تحدّث عن أمه. فقد زار قبرها بعد أن فتح مكّة، إلا أنه رفض الصلاة من أجلها. ماذا كان الغرض من تلك الزيارة؟ ربّما كان ذلك تأكيده، طريقته ليثبت لها وليريها أنه وبدونها وبالرغم منها، قد حقّق ما حققه. من جهةٍ أخرى، تذكّر جدّه، الذي أمطره بالحب وقدّم له الكثير من الرضا النرجسي، وبولع.

يخبرنا النفسانيون أنّ السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل هي السنوات التي تبنيه أو تحطّمه. حاجات محمد العاطفية خلال السنوات الخمس الأولى لم تكن سهلة. فقد حمل الذكريات المؤلمة لسنوات الوحدة التي كانت مليئة بالهجر والإهمال حتى سنين رشده وكهولته. لقد عاش من دون أمان وكان لجيه شعور متقلّب بالأهمية، وهذه كانت نقطة ضعف حاول إخفائها وراء قناع من الغطرسة الساحقة من قبل الإحساس المتزايد بالاستحقاق، التخويل، الفخامة، وأوهام التفوّق.
لقد وضع نفسه على أنه الشريك الوحيد لله ولكي يضمن ألا يأخذ منه أحد في العالم مكانته المتميّزة هذه، زعم على أنه آخر الأنبياء. لذا كانت قوته وسلطته مطلقة وأزلية.

[89] جي. دي. ليفين ورونا ويس: ديناميكيات وطرق معالجة الإدمان على الكحول.
J. D. Levine and Rona H. Weiss. The Dynamics and Treatment of Alcoholism. Jason Aronson, 1994

(١٠)
أثر خديجة على محمد

حتى الآن لم تمنح خديجة حقها في الاهتمام والدراسة على الدور الذي لعبته في نشأة الإسلام. فتأثير ها على محمد لا يمكن المغالاة في التأكيد عليه. إذ علينا اعتبار خديجة بأنها شريكة محمد في صنع الإسلام وصياغته. فمن دونها، ربما، ما كان للإسلام وجود أصلاً.

نحن نعلم أنّ خديجة كانت مولعة بزوجها الشاب وتعشقه. وليس هناك أي رواية تخبرنا بأنّ محمداً قد تابع أو استمر في عمله بعد زواجه من خديجة. فبعد الزواج، يبدو أنّ تجارة خديجة قد كسدت وهبطت إلى الحضيض. وعند موتها، كان وضع العائلة انحدر إلى ما دون خط الفقر.

محمد لم يكن يعتني بالأولاد أيضاً. بل كان منطويا، مكتئباً ومعزولاً عن العالم، كان يقضي معظم وقته منعزلاً، منسحباً إلى عالمه الخيالي متأملاً فيه.
نقرأ بكلمات فاكنين نفسه: ((لتجنّب هذا الألم الذي لا يحتمل، فإنّ بعض المرضى الذين يعانون من إضطراب الشخصية النرجسية NPD ينسحبون اجتماعياً ويخلقون لأنفسهم حالة مزيّفة من التواضع وعدم التكبّر لإخفاء غرورهم. والاضطرابات المزاجية والاكتئابية هي استجابات شائعة للعزلة ومشاعر العار وانعدام التوافق والانسجام))[90].

كان محمد في معظم الأحيان يأخذ لنفسه طعاماً يكفيه عدة أيام، ولا يعود إلا بعد انتهاء الطعام ليتزوّد بالمزيد من المؤونة ويعود إلى كهفه.
خديجة كانت تبقى في المنزل. إذ لم تكن تعتني بأولادها التسعة فقط، بل كانت تعتني بزوجها الشاب أيضاً الذي كان يتصرف كالمولد الصغير غير المسؤول. لكنها لم تكن تشتكي. بل كانت سعيدة بتضحيتها... لكن لماذا؟ هذا السؤال في غاية الأهمية، فهو إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أنّ خديجة كان لديها اضطرابها الخاص في شخصيتها. كانت تعاني ممّا نطلق عليه اليوم اسم "العلاقة الترابطية الاعتمادية" codependent [وهي علاقة حب غير صحية تتمثل في أنك تقدر حبك للطرف الآخر أكثر ممّا ينبغي وبشكلٍ مبالغ فيه]، أو النرجسية المعكوسة reversed narcissism. هذه القطعة من اللغز بالغة الأهمية وستساعدنا على فهم سبب وقوفها بجانب زوجها عندما أخبرها عن هلوساته الغريبة، وبدلاً من استدعاء كاهن لطرد الأرواح شجّعته لإطلاق سيرته النبوية.

تعرّف الجمعية الوطنية للصحة العقلية (NMHA) العلاقة الترابطية الاعتمادية بأنها ((سلوك مكتسب يمكن نقله من جيل لآخر. وهي حالة سلوكية عاطفية تؤثر على قدرة الفرد على أن يعيش علاقة طبيعية، صحية، مليئة. وتعرف أيضاً باسم "إدمان العلاقة" لأنّ الناس الذين يعيشون علاقة حب غير صحية غالباً ما يكوّنون أو يستمرّون في علاقة من طرف واحد، مدمّرة عاطفياً و/أو مؤذية. تمّ تحديد هذا الاضطراب لأول مرة منذ حوالي عشر سنوات كنتيجة لسنوات طويلة من دراسة العلاقات الشخصية ضمن عائلات المدمنين على الكحول. فهذا النمط من السلوك يتمّ اكتسابه عن طريق مشاهدة ومحاكاة العائلات الأخرى التي تظهر مثل هذا النمط من السلوك))[91].

---

[90] http://www.globalpolitician.com/25109-barack-obama-elections

[91] http://www.nmha.org/infoctr/factsheets/43.cfm

كانت خديجة امرأة طيبة ولطيفة وذكية. كانت الابنة المفضّلة عند أبيها خويلد. في الواقع كان خويلد يعتمد عليها بشدّة، أكثر ممّا كان يعتمد على أبناءه من الذكور. كانت خديجة "الابنة المدلّلة عند والدها". كانت قد رفضت عروض أقوى رجال مكة وأعظمهم مكانةً عندما تقدموا للزواج منها. لكنها عندما رأت محمد الشاب الفقير والمحتاج، وقعت في حبه وأرسلت جاريتها إليه تعرض عليه الزواج منها.

على السطح يبدو أنّ محمداً كانت لديه تلك الشخصية المغناطيسية الجذّابة التي جذبت هذه المرأة القوية. لكن هذا بأي حال ما هو إلا فهم سطحي وخرافي في لهذه الآلية المعقدة.
كتب الطبري في تاريخه ((إنّ خديجة أرسلت إلى النبي صلعم تدعوه إلى نفسها تعني التزويج وكانت امرأة ذات شرف وكان كل قريش حريصاً على نكاحها قد بذلوا الأموال لو طمعوا بذلك فدعت أباها فسقته خمراً حتى ثمل وذبحت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلّة حبرة ثم أرسلت إلى رسول الله صلعم في عمومته فدخلوا عليه فزوّجها فلما صحا قال ما هذا العقير وما هذا العبير وما هذا الحبير قالت: زوجتني محمد بن عبد الله. قال: ما فعلت إني أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل))[92].

ظلّ أقارب محمد يرددون وبنقمة أنّ هذا الجمع تمّ التخطيط له على يد ابنته. فاستلّ العجوز سيفه غاضباً وأقارب محمد استلوا سيوفهم أيضاً. كانت الدماء على وشك أن تُسْفَك لولا تدخّل خديجة وإعلان حبها لمحمد، وقد اعترفت بأنها قد دبّرت العملية بكاملها وخطّطت لها. هنا هدأ خويلد، ثم تقبّل الأمر الواقع، جاءت المصالحة. ما تفسير وقوع امرأة ذكية ومتّزنة وناجحة في حب شاب فقير، يصغرها بخمس عشرة سنة؟ هذا السلوك العصبي يعطينا فكرة عن اضطراب شخصية مؤكّد عند خديجة.

يشير الدليل أنّ والد خديجة كان مدمناً على الكحول. ولابد أنّ خديجة كانت تعرف نقطة ضعف والدها تجاه الكحول لتدبّر وتصرّف مثل هذه الخطة الجريئة. عادة ما يشرب الناس غير الكحوليين باعتدال، ويعرفون متى ينبغي عليهم التوقف. لقد شرب خويلد حتى الثمالة قبل وصول الضيوف. فهو لم يكن شارباً عادياً للكحول وفي المناسبات الاجتماعية فقط، بل كان مدمناً على الكحول. والآن، ما أهمية كل هذا؟ ولأنها قطعة أخرى من الأحجية في غاية الأهمية لدعم النظرية التي تقول أنّ خديجة كانت تعاني من علاقة حب اعتمادية وغير طبيعية. فأولاد المدمنين على الكحول غالباً ما يقعون في علاقات حب غير صحية اعتمادية.

كان والد خديجة يفرط في حمايتها وكانت لديه الكثير من الآمال والتوقعات الكبيرة حولها. فمن خلال ردّ فعله تجاه زيجة ابنته ذات الأربعين عاماً من شاب عادي، وجملته التي قالها ((وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل))، من الواضح أنّ خديجة كانت قرّة عينه. كامل خويلد أبناء أخرين أيضاً، من بينهم عدة ذكور، لكن من الواضح أنّ هذه الابنة كانت مصدر فخره واعتزازه وسعادته.

الأولاد الذين يكونون مصدراً للعشق وركيزة للمحبة من قبل آبائهم المتطلّبين يعيشون في ظلّهم. إنهم غالباً ما يطوّرون اضطراباً اعتمادياً في الشخصية. فيتحوّلون إلى أشخاص محبين للأب (أو الأم) لدرجة الهوس، ويرون أن وظيفتهم تتلخّص في جعل صورة آبائهم تبدو جيدة في أعين الآخرين. غالباً ما يُتَوَقع منهم أن يكونوا "الطفل الأعجوبة"، ونراهم يسعون بكل ما لديهم من طاقة وقدرة على أن يعيشوا وفق توقعات وتطلعات آبائهم كي لا يخيّبوا ظنهم.

---

[92] تاريخ الطبري، ج3، ص832

وتحت ضغط المطالبة بأداء أفضل، يصبح الطفل عاجزاً عن تطوير شخصية مستقلة خاصة به. فنراه يسعى لتحقيق شخصيته الحالية في إرضاء حاجات ورغبات والده النرجسي والمطالب بالكمال. فهو لا يشعر بأنه محبوب لما هو عليه بطبيعته، إنما لما يفعله إرضاءً لوالده. فالأب المدمن على الكحول يلقي حمولته العاطفية الخاصة على أكتاف أولاده، وبشكلٍ أخص الولد الأكفأ بينهم. فهو يتوقع منه أن يبرع في كل شيء وأن يعوّض عن كل فشله وأخطاءه.

الأشخاص الاعتماديون عاجزون عن إيجاد الرضى والسعادة في العلاقات الطبيعية والسليم عاطفياً والتي لا يمكن أن تقوم إلا بين طرفين متعادلين ومتساويين. ولا يمكن للأشخاص الاعتماديين أن يجدوا سعادتهم إلا بوصفهم خدماً ورعاةً. وأفضل شريك لهذا النمط من الشخصية هو النرجسي المتطلّب.
رفضت خديجة جميع من تقدموا لخطبتها من الرجال الناجحين ذوي المكانة الرفيعة، ووقعت في الحب مع شاب فقير كان متطلّباً من الناحيتين العاطفية والاقتصادية. الأشخاص الاعتماديون غالباً ما يخلطون ما بين الحب ومشاعر الشفقة. لديهم الميل لحب الناس الذين يجب أن يشعروا بالشفقة تجاههم ومساعدتهم.

يستخدم فاكنين مصطلح "النرجسية العكسية" بدلاً من الاعتمادية الترابطية. وهذا بالضبط ما يقوله عن العلاقة النرجسية الاعتمادية: ((المصاب بالنرجسية العكسية لا يشعر بأي شيء إلا عندما يكون في علاقة مع نرجسي آخر. الشخص النرجسي العكسي مبرمج منذ البداية على أن يكون الشريك والصاحب المثالي للنرجسي: ليغذّي أناه، ليكون امتداداً له، وليمجّده ويداهنه أكثر فأكثر قدر الإمكان))[93].

وهذا ما يفسّر لنا لماذا تصبح امرأة جميلة وذكية وناجحة مثل خديجة مهتمّة برجل فقير وكتطلّب كمحمد. مع أنّ النرجسيين العكسيين يميلون إلى أن يكونوا ناجحين في أعمالهم، إلا أنّ علاقاتهم غالباً لا تكون سليمة أو صحية. ويفسّر لنا فاكنين قائلاً: ((في أي علاقة أولية، فإنّ النرجسي المنعكس يحاول إعادة خلق العلاقة ما بين الأب والابن. فالنرجسي المنعكس يسعى ليعكس عظمة النرجسي وجلاله، وبقيامه بذلك يؤمّن النرجسي مصادره النرجسية الأولية (اعتماد النرجسي على المنعكس هو المصدر الثانوي للنرجسية). والمنعكس عليه أن يحصل على نمطه الخاصة من العلاقة مع النرجسي لكي يشعر بالكمال والاكتمال. وسيمضي المنعكس إلى أبعد مدى ممكن يحتاجه لضمان سعادة النرجسي، وأنه يشعر بالرعاية من قبله، وأنه في قائمة أولوياته، وأنّ كل ذلك هو من حق النرجسي. المنعكس يمجّد شريكه النرجسي، ومستعد لتحمّل أي شيء يبدر منه بسعادة تامة ودون كلل أو ملل أو شكوى))[94].

قد يبدو أنّ زواج محمد وخديجة كان مخططاً له في السماء (وليس تدبيراً من قبلها). كان محمد نرجسياً يتوق للتمجيد والتعظيم الدائمين، الاهتمام والرعاية. كان فقيراً ومتطلّباً عاطفياً. كان راشداً، لكنّ الطفل في داخله كان ما زال توّاقاً للاهتمام والرعاية الأبوية. كان في حاجة لشخص ما ليهتمّ به ويؤمّن له حاجاته ومتطلّباته، شخص ما ليستغلّه ويسيء معاملته، بنفس الطريقة التي يستغلّ فيها الطفل أمه ويسيء معاملتها بشقاوة.
العلاقة بين أي أم وولدها هي علاقة نرجسية-ترابطية-اعتمادية بشكل متبادل. فالأم مرتبطة عاطفياً بصغيرها. وتتحمّل كل شيء منه عندما يتصرّف بشقاوة تجاهها. وهذا أمر طبيعي وصحي. لكن عندما تكون هذه الدينامية موجودة بين شخصين بالغين، فهذا بعيد كل البعد عن السلامة والصحة.

---

93 http://samvak.tripod.com/faq66.html

94 http://www.toddlertime.com/sam/66.htm

يكون عادةً النضوج العاطفي للنرجسي متوقفاً عند الطفولة. فحاجاته الطفولية لم تُرضى بعد. كما أنه في مسعى دائم لإرضاء حاجاته الطفولية. جميع الأطفال نرجسيون وهذا جزء هام جداً وحيوي خلال مراحل نموهم. لكن إذا لم يتم إرضاء حاجاتهم النرجسية وإشباعها خلال مرحلة الطفولة، فإنّ نضوجهم العاطفي سيتوقف عند تلك النقطة. إنهم يسعون لنيل الاهتمام الذي لطالما افتقدوه خلال طفولتهم، في علاقاتهم مع شركائهم وأصحابهم والآخرين، ومن بينهم أولادهم هم.

كان محمد يعبّر عن توقه للحب والاهتمام خلال العديد من المناسبات. وينقل ابن سعد عنه وهو يقول لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصروني، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة[95]. وقد جاء في القرآن {لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى!!}[96]، هذه الكلمات تعبّر عن توق شديد ويائس للحب والاهتمام.

خديجة من جهةٍ أخرى، كانت مصابة بالنرجسية المعكوسة، وكانت بحاجة لأحدٍ ما يرضي لها خيالاتها وحاجياتها بوصفها راعية ومعيلة. ولا يقتصر الأمر على أنّ الشخص الاعتمادي لا يمانع بأن يتمّ استغلاله، بل هو يستمتع بذلك.
يكتب فاكنين قائلاً: ((المصاب بالنرجسية المعكوسة يتغذّى على النرجسي الأولي وبذلك يحصل على مصدره النرجسي. لذا يمكن لهذين النمطين من الشخصية أن يشكّلا من الناحية الجوهرية نظاماً تعايشياً ذاتي الدعم. لكن في الواقع، كل من النرجسي والنرجسي المعكوس بحاجة لأن يكونا مدركين لديناميكيات هذه العلاقة لكي يجعلان منها علاقة ناجحة وطويلة الأمد))[97].

يفسّر لنا عالم النفس الدكتور فلورنس كاسلو هذا التعايش بالقول أنّ كلا الطرفين يعانيان من خلل أو اضطراب في الشخصية PDs _ لكن كل واحد منهما يقف عند طرف الطيف، والآخر يقف عند الطرف الآخر. ((يبدو أنّ كلٍ منهما لديه انجذاباً قاتلاً وفتّاكاً نحو الآخر وفي ذلك تتكامل شخصيتاهما بشكل متبادل ـ وهذا هو أحد الأسباب التي تدفعهما ـ إذا حدث وانفصلا أو تطلّقا، أن ينجذبا مرة بعد أخرى نحو أشخاص مماثلين لشريكهم السابق))[98].

العلاقة التعايشية بين محمد النرجسي وخديجة النرجسية المنعكسة عملت بطريقة أكثر من مثالية. محمد لم يعد بحاجة إلى العمل وتأمين المال اللازم من أجل العيش. بل قضى أيامه هائماً على وجهه في الكهوف والبراري لوحده مع مخيّلته الخصبة، في عالمه الخيالي اللذيذ والجميل حيث كان محبوباً، ومحترماً ومهاباً. غرقت خديجة حتى أذنيها في هذا النرجسي المنغمس بذاته، فأهملت عملها وتجارتها في سبيل تلبية احتياجاته الخاصة.

[95] سورة الشورى 42: آية رقم 23

[96] ((إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة))،طبقات، جزء1، ص3

[97] http://samvak.tripod.com/faq66.html

[98] from "Mixing oil and water" by Bridget Murray, APA Online Monitor On Psychology, Vol. 35, No. 3, March 2004, (online version), -print- version: page 52, online version found at http://www.apa.org/monitor/mar04/mixing.html (accessed June 22, 2007www.apa.org/monitor/mar04/mixing.html)

تدنّى عملها المزدهر سابقاً وتبخّرت ثروتها. لابد أنها كانت في الخمسين من عمرها تقريباً عندما أنجبت أصغر أولادها. وبقيت في المنزل بينما كان زوجها بعيداً عنها معظم الوقت، غائباً في كهوفه البرية والعقلية.
حسب فاكنين ((إنّ النرجسي المنعكس إنسان معطاء وغير أناني إلى أبعد حد، ميّال للتضحية، بل حتى أنه متملّق ومداهن في علاقاته الشخصية، وسيتجنّب مساعدة الآخرين له بأي ثمن. ولا يمكنه التفاعل مع الآخرين إلا عندما يكون من الممكن مشاهدته كشخص معطاء، داعِم، مساند، يبذل مجهوده لتقديم العون والمساعدة والرعاية للآخرين))[99].

كما أنّه [فاكنين] يعرّف الأشخاص الاعتماديون بوصفهم ((الأشخاص الذين يعتمدون على أشخاص آخرين من أجل تقديرهم العاطفي لهم وأداء الأنا أو الوظائف اليومية)) ويقول أيضاً ((إنهم متطلّبون، ملحاحون، ومنقادون. إنهم يخشون الهجر والتخلي عنهم، يتعلّقون بسهولة، ويظهرون أنماطاً من السلوك الصبياني والتصرفات غير الناضجة في محاولتهم للحفاظ على "العلاقة" مع أصحابهم أو شركائهم الذين يعتمدون عليهم))[100].
تفسّر لنا ميلودي بيتي مؤلّفة كتاب Codependent No More أنّ الأشخاص الاعتماديون ينتقون وبطريقة لا شعورية شركاء يعانون من المشاكل والاضطرابات النفسية لكي يشعروا أنّ لديهم غاية، وبأنّ هؤلاء بحاجة لهم ولكي يشعروا بالرضا والاكتفاء.

أي إنسان عاقل سيفسّر تجربة محمد الغريبة على أنها اضطراب عقلي أو ذهان، أو "مَسّ شيطاني"، كما كانوا يسمونها في تلك الأيام. وحتى محمد نفسه اعتقد بأنه قد أصبح "كاهن"، أو "ممسوس". وكما نقرأ في القرآن، نرى أنّ عقلاء مكّة اعتقدوا أنّ محمداً قد "جُنّ"، أي بمعنى أنه قد مَسّه الجن، وتُفهَمُ أيضاً بأنها تعني "مجنون". لكنّ خديجة لم تكن تطيق احتمال هذه الأفكار عن زوجها، وهي التي كانت تعتقد أنّ كمالها وسعادتها ورضاها جميع هذه الأمور تكمن في تلبية حاجات زوجها وإشباعها. كانت بحاجة للتعلق والتمسّك بشريكها النرجسي مهما كلّف الأمر. وبما أنها كانت اعتمادية، شعرت بالحاجة للتدخّل في الأمر، ومساعدة زوجها، وأن تكون له المصدر النرجسي المثالي.
غالباً يطالب النرجسي الناس الذين حوله بالتضحية ويتوقع منهم أن يتحوّلوا إلى معتمدين عليه. كما أنّ النرجسي يعيش فوق القواعد والقوانين الأخلاقية. إنه يشعر بأنه أكبر وأفضل من أن يخضع لأية قوانين أو قواعد أخلاقية.

جون دي رويتر، مدّعي نبوّة زعم أنه المسيح، من ألبرتا، كندا. أتباعه يعبدونه بوصفه إلههم. تقول جويس، زوجة دي رويتر السابقة والمبعدة منذ 18 عاماً: ((في أحد الأيام كنا جالسين في المطبخ ندخّن السجائر، كان يتحدّث عن "موتي"، وعندما اعترف بأني قد مررت بالكثير خلال حياتي، وأني قد تجاوزت العديد من الحالات التي كان من الممكن أن أموت فيها، وهذا أمر جيد. وأني قد استهلكت خمسة وتسعون في المئة من الحياة التي كنت سأغادرها قريباً. لكنه قال بأني لم أكن اسمح لنفسي بالمضي بشكل كلي. وأشار إلى أنّ موتي في نهاية

[99] http://www.toddlertime.com/sam/66.htm

[100] “The Inverted Narcissist” Sam Vaknin, HealthyPlace.com Personality Disorders Community, at http://www.healthyplace.com/communities/Personality_Disorders/narcissism/faq66.html (date not given) (accessed June 22, 2007)

المطاف سيكون إذا اتّخذ هو لنفسه زوجتين غيري)). قالت جويس أنها ظنت في بداية الأمر بأنه كان يمزح. لكنه تطرّق إلى الموضوع مرة ثانية، وسألها إذا كانت تعتقد أنه يمكن لثلاث زوجات أن يعشن في منزل واحد[101] لحسن الحظ لم تكن جويس اعتمادية إلى حدٍ كبير لتوافق على هذا القدر من الذل والمهانة، وهجرت زوجها النسي الدنيء. الاعتمادي الفعلي سيفعل أي شيء لإرضاء شريكه النرجسي. فالعلاقة بين المرأة الاعتمادية وشريكها النرجسي هي علاقة سادية-مازوشية.

من سوء حظ البشرية أنّ خديجة كانت اعتمادية فعلية، وكانت مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل زوجها النرجسي. كانت هي من شجّعت محمد على ملاحقة طموحه النبوي ودفعته بكل ما أوتيت من جهد في ذلك الاتجاه. وعندما لم تعد تنتاب محمد نوبات صرع، وما عاد يرى ملائكة، شعرت خديجة بالخيبة. يقول ابن إسحاق ((إنّ جبريل قد أبطأ عليه بالوحي، فقالت خديجة للنبي صلعم: ما أرى ربك إلا قد قلاك))[102]، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على توقها الشديد لنبوّة زوجها النرجسي.

لماذا لم يتّخذ محمد زوجات أخريات لنفسه عندما كانت خديجة ما تزال على قيد الحياة؟... لأنه كان يعيش من مالها وفي منزلها. علاوةً على ذلك، كانت غالبية شعب مكة يسخرون كنه. لقد أطلقوا عليه لقب "مجنون". لم ترضى أي فتاة أو امرأة الزواج به حتى لو كان يملك المال وكانت خديجة خارج الموضوع. كان أتباعه في مكة هم مجموعة من الشبان والمراهقين والعبيد وبضع نساء بينهم، ولم تكن ولا واحدة منهن مناسبة للزواج به. لو أنّ خديجة كتبت لها الحياة ومشاهدة صعود زوجها إلى السلطة ونجاح دعوته، على الأرجح أنها كانت ستخضع لتقلّبات زوجها المزاجية وتتحمّل مذلّة مشاركته مع نساء وفتيات أصغر سناً وأكثر جمالاً منها.

بعد وفاة خديجة، لم يعثر محمد أبداً على شريك اعتمادي آخر يلبي له حاجاته العاطفية، كما فعلت خديجة. وبدلاً من ذلك، سعى لإرضاء حاجاته العاطفية عن طريق التحوّل إلى فراشة جنسية شبقة. فبعد مضيّ شهر واحد على وفاة زوجته، أقنع محمد صديقه الوفيّ والمقرّب أبو بكر ليزوّجه ابنته التي كانت ما تزال في عامها السادس. شعر أبو بكر بالصدمة، وحاول إزاحة الفكرة من عقل محمد، قائلاً له: ((إنّما أنا أخوك)). لكنّ محمد قد طمأنه وأكّد له أنهما أخوة في الإيمان وأنّ زواجه من تلك الفتاة الصغيرة لم يكن حراماً[103]. ثمّ أخبره أنه قد رآها في منامه حيث رأى ملاكاً يحما عائشة الطفلة في ثياب من حرير ((فقلت [قال محمد لنفسه]: إن يكن هذا من عند الله يمضه))[104].

والآن أبو بكر أمتك عدّة خيارات، أن بترك محمد، لكنه كان قد ضحّى بالكثير لأجله، أن يرفضه ويتنكّر له وينعته بالكذّاب ثم يعود إلى قومه، أن يعترف أنه كان أحمق وساذج، أو ينصاع لرغبة محمد ويحقق له ما طلبه منه. وهذا من أصعب الخيارات التي غالباً ما يقف أمامها المنتمون إلى إحدى الطوائف. حتى أنّ أبو بكر قد بنى مسجداً خلف منزله ليصلي فيه المسلمون. حتى أنه كان يبكي وهو يتلو آيات محمد المزعومة. أمّا رفضه والتنكّر له وتركه في هذه المرحلة بعد كل ما لاقاه وواجهه فلم يكن بالأمر السهل ولا بالخيار المتوفر. المنتمون إلى أي

[101] The Gospel According to John," by Brian Hutchison, Saturday Night Magazine, May 5, 2001, at http://www.rickross.com/reference/ruiter/ruiter3.html (accessed June 22, 2007)

[102] تفسير الطبري، ص486. سيرة النبي، ابن إسحاق، ص108.

[103] عن عروة أنّ رسول الله صلعم خطب عائشة إلى أبي بكر،فقال له أبو بكر: إنّما أنا أخوك، فقال: أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي لي حلال. /البداية والنهاية، ابن كثير، جزء 3، فصل في تزويجه صلعم بعهد خديجة بعائشة/.

[104] صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب كشف المرأة في المنام، 6609.

طائفة هم مجرّد أسرى، سجناء. غالباً ما يكونون قد ضحّوا بالكثير والغالي والنفيس في سبيل الطائفة لدرجة أنّ خطّ الرجعة سيكون أصعب وأكثر إيلاماً من الخضوع والانقياد.
يكتب بوب لارسون قائلاً: ((رؤساء وزعماء الطوائف يعرفون جيداً أنه ما أن تتم برمجة أحد الوافدين الجدد حتى يقبل بأفكارهم ووجهات نظرهم، وما أن يبدأ هذا الوافد الجديد بالشعور بحسّ الانتماء الذي يمنحه معنى ومكانة، سرعان ما سيصبح عقله مستعداً لقبول أي تعاليم أو أوامر أو معتقدات، ومن بينها الإيمان بقائد الطائفة على أنه الله))[105].

توسّل أبو بكر إلى محمد أن ينتظر ثلاث سنوات أخرى قبل أن يتمّم الزواج. وافق محمد لكنه في هذه الأثناء تزوّج من سوده [بنت زمعه]، أرملة أحد أتباعه، بعد عدّة أيام من طلبه عائشة.
أنشأ محمد حريماً خاصاً به بأكثر من درّينة من النساء. كان يحاول التعويض عن خسارة الحضن الحنون بعددٍ وفيرٍ من النساء. واستمرّ في إضافة المزيد من الزوجات إلى موعظته بالإضافة إلى الإماء وملكات اليمين، لكن ولا واحدة منهن استطاعت إرضاء حاجاته الطفولية الصبيانية كما فعلت خديجة. كان في حاجة إلى أم تعتني وتهتم به وبالطفل القابع بداخله، وهذا شيء يصعب على زوجاته المراهقات تحقيقه له، وهو الرجل الذي يعتبر بمثابة جدّهن.

---

105 Larson’s New Book of Cults 1989, pp. 14-15.

(١١)
إيمان محمد بقضيّته

منذ طفولته المبكّرة، كان محمد يرتاد الاحتفال السنوي الذي كان يقام بسوق عكاظ، حيث كان يلتقي الناس من كافة الأنحاء للتجارة والمتعة. هناك، كان يوجد مبشّرون مسيحيون يقرأون على الجمهور قصصاً عن أنبياء الكتاب المقدّس. كان محمد مأخوذاً بتلك القصص والروايات. أمّا الأفكار التي كانت تسيطر على رأسه هي أن يكون محبوباً ومحترماً. "كم سيكون جميلاً لو كنت نبياً، أن أكون محبوباً ومهاباً من الجميع"، لا بدّ أنه فكّر بهذه الأفكار خلال استماعه لهذه القصص. والآن، كانت زوجته تطمئنه وتؤكّد له بأنه أصبح نبياً وأنّ خيالاته قد أصبحت حقيقة. ويبدو أنّ الله قد نظر إليه بعين العطف أخيراً، واختاره من بين جميع الناس واصطفاه ليدعو الناس للتسليم.

كانت أفكار محمد جامحة. في الواقع كانت كل هذه العظمة والفخامة مجرّد أفكار وإيمانه الراسخ بالنجاح اللامحدود الذي ألهم أتباعه للاندفاع والدفاع عن قضيّته، للاغتيال، للسلب والنهب والقتل، وحتى آبائهم وأهلهم، في سبيل قضيته. فالفضل يعود لهذه الأفكار عن العظمة، شعر أنه مخوّل بأن تكون له ميّزات خاصّة وفريدة.

كان محمد متلاعباً واستغلالياً. لقد بنى إمبراطوريته من دون أن يحتاج لأن يخوض ولو معركة واحدة بشكل شخصي. وذلك عن طريق تقديم وعود بالمكافئات الأخروية والجنّات المليئة بالمتع اللانهائية، إذ شجّع أتباعه بهذه الطريقة على خوض الحروب بدلاً عنه، وتبديد ثرواتهم في سبيل قضيّته، مضحّين بحياتهم، سالبين ناهبين لجعله ثرياً ووضعه على عرض القوّة والسلطة.

النرجسيون هم سادة الكذب. وهم أنفسهم حتماً أول ضحايا خداعهم. إنهم ينكرون بشكل لا شعوري صورهم الذاتية الفقيرة بشكل لا يطاق عن طريق نفخ أناهم بالعظمة والفخامة. إنهم يحوّلون أنفسهم إلى صور متألّقة للعظمة الهائلة المحاطة بجدران عالية من النكران. والهدف من عملية الخداع الذاتي هذه هو أن يكونوا محصّنين ضدّ النقد الخارجي وضدّ بحر الشكوك التي يتخبّطون فيه. النرجسيون هم كذبة لحدّ المرض، في حين أنهم يؤمنون بعمق بأكاذيبهم الخاصة، ويشعرون بالإهانة الكبيرة إذا ظهرت تناقضات.

يقول فاكنين: ((النرجسي في سعي أبدي من الحماس والدراما بقصد تخفيف سأمه وكَآبته الكبيرين. لا حاجة للقول، بأنّ السعي ذاته وأهدافه يجب تتطابق مع رؤية العظمة والفخامة التي ينظر بها النرجسي (خطأً) لنفسه. يجب أن تكون مساوية لرؤيته لفرادته وتميّزه))[106]

هذا يفسّر حرب محمد الثابتة والمستمرّة. الدراما، الحماسة وتدفّق الأدرينالين جميعها كانت مصادر نرجسية. بأي حال، النرجسي هو أول من يؤمن بهراءه.

يفسّر د. فاكنين: ((بشكل مسلّم، القبضة النرجسية على الواقع ضعيفة جداً (ففي بعض الأحيان يفشل النرجسيون أمام اختبار الواضع). ومن المعروف، غالباً ما يبدو واضحاً أنّ النرجسيين مؤمنون بخيالاتهم وأوهامهم الخاصّة. إنهم غير واعين للطبيعة المرضية وأصل أوهامهم الذاتية، لذلك هم متوهّمين عملياً (مع أنهم

[106] Dr. Sam Vaknin Narcissism FAQ #57

نادراً ما يعانون من الهلاوس، الحديث غير المنتظم، أو السلوك الشاذّ أو المتشنّج). في المعنى الأعمق للكلمة، يبدو النرجسيون على أنهم ذهانيون))[107].

والحال أنّ فاكنين يقول أنّ النرجسيين، في حين أنهم أسياد الخداع الذاتي أو حتى مهارات الخداع الخبيثة، ((عادةً ما يكونون مدركين بالكامل للفرق بين الخطأ والصواب، الحقيقي والإيماني، المختلق والموجود، الصح والخطأ. النرجسي يختار بشكل شعوري لتبنّي نسخة واحدة من الأحداث، رواية تفخيمية، وجوداً خرافياً، حياةً خيالية نقيضة للواقع قائمة على فكرة "ماذا لو". إنه مغلّف عاطفياً بأسطورته الشخصية. النرجسي يصبح شعوره أفضل في الخيال أكثر من الواقع _لكنه لا يفقد أبداً رؤيته لحقيقة أنّ ذلك كلّه مجرّد خيال. النرجسي يسيطر سيطرة تامة على قواه، يدرك خياراته، وتوجيه أهدافه. سلوكه قصدي وموجّه. إنه مخادع متلاعب، وخيالاته تصبّ في خدمة حيله. بما أنّ قدرته الشبيهة بالحرباء في تغيير شكله، هيئته، تصرّفاته، سلوكه واتهاماته.... يحاول النرجسي تكييف أقرب وأعزّ الأشخاص إليه لتدعيم ذاته الواهمة بشكل إيجابي))[108]. في حالة محمد، ذلك الدور لعبته خديجة بشكل ممتاز.

هذا أمر يصعب فهمه إلى حدٍ ما. فمن ناحية، يقول فاكنين أنّ النرجسي لا يفقد رؤيته للواقع الذي ما هو إلا من صنع خياله، ومن ناحية أخرى، يقول أنّ قبضة النرجسي على الواقع ضعيفة وأنه غالباً ما يؤمن بأوهامه وخيالاته. وبالرغم من أنّ هذا الكلام يضعنا أمام معضلة منطقية بالنسبة للأشخاص العاديين، لكن ليست مشكلة بالنسبة للنرجسي الذي يكذب ثمّ يمضي ليقنع نفسه بصحّة تلك الأكاذيب وكأنها حقائق مطلقة، وسيغيّر أيضاً روايته بالطريقة التي تناسبه.

نحن نميل للاعتقاد أنّ الشخص إمّا مجنون أو كاذب وأنّ كلا الأمرين متعارضان. هذا ليس صحيحاً البتّة. في أغلب الأحيان يتظاهر المجرمون بالجنون للإفلات من العقاب. المجتمع، ومن ضمنهم خبراء الصحّة العقلية أيضاً يقعون أمام هذه الخدعة. هذا الغباء وصل حداً سخيفاً، جيمس باسينزا، رجل في الثامنة والخمسين من العمر تمّ طرده لأنه كان يزور مواقع دردشة للراشدين خلال العمل، قاضى الشركة التي يعمل فيها (IBM) لطرده الخاطئ والجائر، زاعماً أنّه كان مدمناً على غرف الدردشة على الإنترنت وكان على الشركة أن تتعاطف معه وتقدّم له العلاج المناسب بدلاً من طرده. وحصل على مبلغ 5000000 دولار كتعويض[109].

الحقيقة هي أنّ النرجسيين واعين بالكامل لأفعالهم. قاتل مدينة نيويورك المتسلسل ديفيد بيركوفيتز، الذي أطلق على نفسه لقب "ابن سام"، أفلت من العقوبة العظمى لأنّ جرائمه كانت تتمّ وهو فاقد للحس كما اعتقد الجميع، وبسبب الجنون لم يكن مسؤولاً عن أفعاله. في الواقع هو كان يعرف ماذا يفعل وأنّ ما يفعله كان خطأً. ولهذا السبب حاول جاهداً للتهرّب من الشرطة وحتى أنه عنّفهم. بأي حال، كان نرجسياً وكان يتوق للفت الانتباه. كان يترك دلائل وعلامات ليتمّ إيجاده. فبهجة الحصول على كلّ تلك الشهرة التي كانت تحيط القضية كانت بالنسبة إليه دفعاً أكثر من حريته.هو ببساطة لم يكن قادراً على يستمتع بحضوره في قاعة الشهرة. ما فعله بيركوفيتز

---

[107] النرجسية المرضية: الذهان، والأوهام. سام فاكنين. على موقعه الإلكتروني.
"Pathological Narcissism, Psychosis, and Delusions" by Sam Vaknin, at Sam Vaknin Sites: http://samvak.tripod.com/journal91.html (accessed June 22, 2007)

[108] السابق

[109] http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/6682827.stm

كان متناسباً مع اضطراب الشخصية النرجسي. عندما تمّ القبض عليه وزجّه بالسجن، قرّر أن يصبح مسيحياً مولوداً من جديد. لماذا لم يقم بذلك من قبل؟ هل أجرى جراحة عصبية في السجن؟ لا! بل قرّر ببساطة أن يغيّر تكتيكاته ليحصل على الاهتمام الذي لطالما تاق إليه. في السجن، السبيل الوحيد ليحقّق ذلك كان بأن يختلق قصّة تحوّله إلى رجل مقدّس. النرجسي عبارة عن حرباء. إذ أنه يراقب الآخرين بحذر ليرى ما الذي يجذب الانتباه أكثر وبعد ذلك يتصرّف وفقاً لذلك.

النرجسيون واعين لأفعالهم. إنهم يعرفون الفرق بين الصواب والخطأ. إنهم يسعون للفت الانتباه وسيفعلون أي شيء للحصول عليه. فإذا أمكنهم الحصول عليه عن طريق تحوّلهم إلى قتلة متسلسلين، فإنهم يصبحون كذلك، وإذا كان بإمكانهم تحقيق ذلك عن طريق تحوّلهم إلى متديّنين وزعماء دينيين، فلا مشكلة لديهم بأن يتحوّلوا إلى ذلك.

لمدى أبعد، يمكننا مقارنة قاتل متسلسل بالمدخّن. فكلاهما يقوم بعمل خاطئ. ومع ذلك فدوافعهما أقوى من قوّة إرادتهما وهما يستسلمان لدوافعهما. المدخّن يقتل نفسه ببطء، سيجارة كل مرة، والقاتل المتسلسل يقتل الآخرين. إذن لماذا لا يتوقف المدخّن عن فعل ذلك عندما يعرف أنّ النيكوتين يقتله؟ ذلك لأنّه قرّر ذلك. على نفس الشكل، النرجسي السيكوباتي أدمن على غزارة تدفّق الأدرينالين في دمه والحماسة التي تأتيه من كونه يلعب دور الإله. فالدافع للحصول على الانتباه قوي جداً لدرجة أنه يجعلهم على استعداد للمخاطرة بحريتهم وحياتهم من أجله.

النرجسيون واعين لأفعالهم الشريرة ولا يريدون أن تصل إلى نهايتها المنتظرة. فمحمد قد شنّ غارات على قرىً، وبعد ذبح المدنيين العزّل، سرق ونهب ممتلكاتهم. كما أنه عذّب حتى الموت أولئك الذي قتلوا أحد رعاته وسرقوا ناقته المسروقة في الأصل.

اغتصب النسوة اللواتي أسرهنّ خلال غزواته، حتى وإن كنّ متزوّجات، كما أنه لم يكن رحيماً مع أي أحد ينظر إلى نساءه وأمرهنّ أن يغطّين أنفسهنّ. حرّم القتل والسرقة، لكنه حلّل لنفسه القتل والسرقة. كنرجسي، كان يظنّ نفسه مخوّلاً بحقوق خاصّة وأنه حر بأن يفعل أيّ شيء تفرضه عليه نزواته. كان محمد مجنوناً وكاذباً بنفس الوقت. وهذا ممكن فقط في حالة كون الشخص نرجسياً سيكوباتياً.

* هل أطلق المكّيون على محمد لقب "الصادق الأمين" فعلاً؟

يزعم المسلمون أنّ محمد كان معروفاً بأنه رجل صادق وأمين وأنّ المكيين لقّبوه بلقب "الأمين". هذا ليس صحيح ببساطة. فالأمين كان لقب أولئك الذين كانوا يبيعون ويشترون السلع والبضائع نيابة عن آخرين. إذ قد يسمى أحد ما بأنه أمين مدرسة أو أمين سرّ المدينة وتلك هي مهنته. فلقب "الأمين" هي تسمية لمهنة محدّدة. هنا بعض الأمثلة عن ذلك: أمين المكتبة، أمين الشرطة، مجلس الأمناء.

في الواقع، أبو العاص، زوج زينب وصهر محمد كان يعرض أيضاً باسم الأمين نسبةً لمهنته. فهو لم يعتنق الإسلام حتى أجبر على ذلك، لأنّ محمداً كان قد أمر زينب بتركه ما لم يسلم.

عمل محمد كأمين عن خديجة أحد المرّات، عندما ذهب في تجارة من أجلها إلى دمشق وباع بضاعتها بدلاً عنها. هل كان المكيون يعتبرون محمد فعلاً بأنه يستحقّ الثقة، إذ أنهم ما كانوا ليسخروا منه يوم أعلن نفسه بأنه

استلم رسالة من عند الله. فحسب اعتراف محمد نفسه في القرآن، هؤلاء الذين كانوا يعرفون حقّ المعرفة نعتوه بأنه كاذب ومجنون {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر 15: 6] تهمة حاول جاهداً ردّها عن طريق جعل إلهه يشهد له: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} [الطور 52: 29]

* حول سياسة فرّق تَسُد

كتب سيغموند فرويد: ((من الممكن دائماً جمع عدد معيّن من البشر في الحب، طالما أنّ هناك بشراً آخرون تركوا لاستلام بيانات عدوانيتهم))[110].

كما تحدّثنا سابقاً، قطّع محمد الروابط التي كانت تجمع أتباعه بعائلاتهم لكي يضمن هيمنته المطلقة عليهم. فقد أمر أتباعه من المكّيّين، الذين هاجروا إلى المدينة، بألا يتصلوا بأقاربهم وعائلاتهم في مكّة. وبالرغم من تنبيهاته وتحذيراته، لعضهم فعل ذلك، ربّما لأنهم احتاجوا للمال لبقائهم. ولوضع حدّ لذلك، فرض الآية التالية التي زعم أنها من عند الله[111].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة 60: 1]

وبإمكاننا رؤية هذا التشجيع للتغريب في آية أخرى..

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة 9: 23]

لماذا كان محمد متحمّساً للغاية لعزل أتباعه؟ فاكنين يفسّر الأمر: ((النرجسي هو بمثابة الغورو في مركز طائفة ما. وكغيره من المعلّمين الغورو، فهو يطالب بالطاعة الكاملة من أتباعه: زوجته، سلالته، أفراد عائلته وعوائل أتباعه، أصدقائه، وزملائه. فهو يشعر بأنه مخوّل ولزوم على الآخرين تملّقه ومعاملته معاملة خاصّة. كما أنه ينزل العقاب على المتمرّدين والحملان الضالّة. إنه يفرض النظام والانضباط، التمسّك بتعاليمه، وأهدافه المشتركة. وكلّما كان إنجازه أقل في الواقع _كلّما كان أكثر صرامةً في سيطرته، وأكثر اختراقاً في غسيله للأدمغة))[112].

وهذا شيء لم يكن بمقدور محمد تحقيقه عندما كان ما يزال يعيش في مكّة، إذ كان بإمكان أتباعه، في أسوأ الظروف، أن يعودوا لعائلاتهم. ولعزل الأتباع، غالباً ما يلجأ زعيم الطائفة للإغلاق عليهم ضمن مجمّعات حيث يمكنه غسل أدمغتهم وفرض السيطرة الكاملة عليهم. في البداية أرسل محمد الطابور الأول من المؤمنين الأوائل

---

110 الحضارة وسخطها.

111 قد يكون القرآن رتيباً ومملاً، ولهذا السبب لا يقرأوه كل المسلمين. بأي حال، سأخاطر بإضجار قرّائي وذلك باقتباس بعض الآيات من القرآن كدليل لدعم صورتي التي أرسمها لمحمد.

112 http://samvak.tripod.com/journal79.html

إلى الحبشة، لكن لاحقاً، عندما عقد تحالفاً مع عرب يثرب، اختار تلك البلدة كتجمّع لأتباعه. حتى أنه غيّر اسم يثرب وأطلق عليها اسم "المدينة" (والتي تشير إلى مدينة النبي).

يقول فاكنين: ((أعضاء طائفة النرجسي المصغّرة يقطنون _وغالباً بشكل إلزامي_ منطقة شفقه من اختراعه هو. فهو يفرض عليهم حالة هذيان مشتركة، ويملأهم بالهذيانات العقلية الاضطهادية، "أعداء"، قصص أسطورية، وسيناريوهات إيحائية))[113].

لاحظ دقّة هذا الوصف عن محمد والمسلمين الذين ما زالوا حتى يومنا هذا يعانون من أوهام اضطهادية ويرون أعداءً لهم في كل مكان. إنهم يؤمنون بالقصص والروايات الأسطورية كالملائكة والعديد من القصص الخرافية كالجنّ، المعراج، يوم القيامة، وإلى ما هنالك من خرافات.

حسب فاكنين: ((إيمان النرجسي العميق والمتجذّر بأنه مضطهد من قبل أعداءه، من يريدون الحطّ من قدره، أصحاب الإرادات المريضة، يخدم اثنين من الديناميكيات النفسية. إنها تدعم عظمة النرجسي ويرفع خصوصيته))[114].

يكتب فاكنين: ((يزعم النرجسي أنه معصوم، متفوّق، موهوب، بارع، مطلق القدرة والمعرفة. إنه غالباً يكذب ويتحدث لدعم هذه المزاعم الخلّبية. ضمن طائفته، يتوقّع من أتباعه الإخلاص، الاحترام، التملّق، والانتباه الدائم بما يتناسب مع قصصه الغريبة وتأكيداته. إنه يعيد ترجمة الواقع ليتناسب مع خيالاته. أمّا تفكيره فيتميّز بالدوغمائية، الجمود، والعقائدية. فهو لا يرحّب بالفكر الحر، التعددية، أو حرية الخطاب، ولا يقبل النقد والاختلاف في الرأي. إنه يطالب _وغالباً ما يحصل عليها_ بالثقة الكاملة والإحالة إلى يديه القادرتين على اتخاذ كلّ القرارات. إنه يجبر أعضاء طائفته أن يكونوا عدائيين مع المنتقدين، السلطات، المؤسسات، أعدائه الشخصيين، أو الإعلام _إذا حاولت فضح أعماله وكشف الستار عن الحقيقة. إنه يراقب عن قرب ويستشعر المعلومات من العالم الخارجي، ولا يعرّض أتباعه إلا لمجموعة منتقاة من البيانات والتحليلات))[115].

من خلال توضيح صفات وميّزات النرجسيين، يصف فاكنين من دون عمد وبدقة عالية عقل محمد والحالة العقلية للمسلمين. المسلمون نرجسيون بطبعهم لدرجة أنهم يضاهون نبيّهم.

---

[113] السابق

[114] http://www.suite101.com/article.cfm/6514/95897

[115] http://samvak.tripod.com/journal79.html

(١٢)
فضلات محمّد المقدّسة

في حزيران يونيو 13، 2007 نشرت مجلّة MEMRI (معهد أبحاث الشرق الأوسط الإعلامية) المقالة التالية[116]:

في كتابه "الدين والحياة: الفتاوى المعاصرة في الحياة اليومية" مفتي الديار المصرية د. علي جمعة كتب أنّ صحابة محمد كانوا يباركون أنفسهم بشرب بوله، وذكر حادثة شرب البول من الحديث: ((أم أيمن أنها قالت: قام النبيّ من الليل إلى فخارة من جانب البيت، فبال فيها، فقمت من الليل وأنا عطشى فشربت ما في الفخارة وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبيّ قال: «يا أَمَّ أَيْمَنَ قُومي إلى تِلْكَ الْفَخَّارَةِ فَاهْرِيقي ما فِيها» قلت: قد والله شربت ما فيها، قال: فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه ثم قال: «أَما إِنَّكِ لا يَفْجَعُ بَطْنُكِ بَعْدَهُ أَبداً))[117].
يضيف جمعة: "هذه المباركة [بإمكانها أيضاً] يمكن إتمامها ببصاق، عرق، شعر، بول أو دم النبي المبارك. هذا لأنّ أي شخص يعرف حبّ رسول لا يشمئزّ من هذه الأمور، تماماً كما الأم لا تشمئزّ من براز وغائط ولدها، حتى أنّ هذا الأمر في هذه الحالة أكثر بكثير من مجرّد حبّ الأم لولدها، حب رسول الله الذي نحبّه أكثر من آبائنا، أبنائنا، وزوجاتنا. وكل من كان أو يشمئزّ الآن من رسول الله لابدّ أنه ناكر أو مرتدّ عن الدين[118].

بعد الضجّة التي لحقت الفتوى، خرج علي جمعة للدفاع عن فتواه، قائلاً: "جسد النبي كلّه، سواء المكشوف منه أو المغطّى، نقي، وليس فيه أي شائبة _ومن ضمنها مفرزاته_ التي لا يمكن أن تثير اشمئزاز أحد. كانت لعرقه رائحة أطيب من العطور. نام رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار أنس فعرق، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه فسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب!![119]
أضاف د. جمعة: "حديث سهيا ابن عمر في الحديبية حيث قال: "مولاي، كنت مع كسرى [ملك الفرس] وقيصر [ملك بيزنطة] ولم أرى أحداً يعظّم قائده كما يعظّم صحابة رسول الله محمد. ثمّ ما أن بصق محمد، حتى سارع أحدهم [لالتقاط بصقته] ومسح بها وجهه". من هنا، قرّر العلماء، ومن ضمنهم ابن حجر العسقلاني، البيهقي، الدارقطني، الهيثمي، أنّ جسد النبيّ بأكمله كان نقياً"[120].

وزير الأوقاف المصري د. محمد حمدي زقزوق انتقد جداً تصريح جمعة. إذ قال: فتوى كهذه تضرّ بالإسلام، وتخدم أعدائه، وتدفع الناس إلى التخلّف والجهل[121]. كاتباً في الصحيفة الحكومية الأهرام، وضّح زقزوق قائلاً: الفتاوى المأساوية كفتاوى جمعة ضرّت بالإسلام والنبي أكثر ممّا فعلته الرسوم الكرتونية الدنماركية، لأنّه في هذا الوقت لا يأتي الضرر من أعداء الإسلام بل من علماء المسلمين الذين يقدّمون آرائهم في الإسلام إلى جمهور المسلمين...

---

[116] http://memri.org/bin/articles.cgi?Page=archives&Area=ia&ID=IA36307#_edn1

[117] بركة أم أيمن كانت خادمة للنبي محمد بالإضافة إلى ممرّضته.

[118] المصري اليوم (مصر) مايو 20، 2007.

[119] أم حرام بنت ملحان كانت قريبة النبي من جهة أمّه، ومن أوائل اللواتي اعتنقن الإسلام وهاجرت إلى مكة.

[120] المصري اليوم (مصر) مايو 23، 2007. د. جمعة صرّح بتصريح مماثل للصحيفة الأسبوعية المصرية اللواء الإسلامي، مايو 26، 2007.

[121] المصري اليوم (مصر) مايو 22، 2007.

كتب الأحاديث تحتوي على الغثّ والثمين معاً. إنها تحتوي على أمور مقبولة وغير مقبولة، وهي ليست في صالح الإسلام أو المسلمين بشيء إذا قمنا بنشر تلك الشوائب مراراً وتكراراً... هؤلاء الذين يتحدّثون باسم الدين يجب أن يفهموا ذلك... فالعالم قد تغيّر، الظروف تغيّرت، ولم يعد مقبولاً أو منطقياً ملء رؤوس المسلمين بأقوال وأحاديث وأفكار وسخة، وافتراضات لا أساس لها لا يمكن إثبات صحّتها...[122]

أكاديمية الدراسات الإسلامية، التي يترأسّها شيخ الأزهر د. محمد سعيد طنطاوي، أبدت اعتراضات عنيفة تجاه الفتوى التي أصدرها جمعة، الذي هو عضو أكاديمي فيها. فطبقاً لتصريحات الأكاديمية، لم تكن الفتوى مناسبة وملائمة لظروف العصر...[123]

هناك الكثير من الاعتراضات والاحتجاجات من علماء مسلمين والجمهور المسلم. المحامي نبيل الوحش رفع دعوى ضدّ جمعة مع المدّعي العام، زاعماً أنّ فتوى جمعة هدّدت الأمن والاستقرار الاجتماعيين كما أنها أساءت وطعنت بالنبي وصحابته[124].

محرّر جريدة الأهرام أسامة سرايا ناقش أنّ فتوى جمعة لم تكن ملائمة لحياة المسلمين المعاصرة، حتى وإن اعتمدت على أسس دينية: كتب الشريعة الإسلامية تتضمّن على العديد من المسائل والقضايا، بعضها صار في حيّز النسيان. لم يكن لها أي علاقة بواقع حياة المسلمين اليوم، وأصبحت نظرية، فلسفية أو حتى جدلية [قضايا]. في الماضي، قال رجال الدين أنه لا ضرورة لأن يبدي المرء كل ما يعرفه. الرأي المقبول هو أنّ العديد من المسائل التي شغلت رجال الدين المسلمين في الماضي لم تعد تستحق الذكر والنقاش _إمّا لأنّها تنتمي للعصر القديم ولم تعد مرتبطة بالحياة العامّة اليوم، أو لأنّها على الأرجح تسبّب الارتباك والصخّب بين العامّة. هذه حقيقة معروفة جيداً بين تلامذة الشريعة...[125]

غالا قبّاله، صحفية لها عمود خاص بها في صحيفة الجمهورية اليومية الحكومية، كتبت: "سواءُ كانت قصّة أم أيمن صحيحة أم لا، فلم يكن ضرورياً أن يذكرها المفتي. [وإن سئل عنها]، يجب أن يجيب المفتي: ما الفائدة من معرفة ذلك؟ النبي، بماضيه المجيد، دمه النبيل وبوله النبيل، لم يعد بيننا. لا مجال للحديث عن مثل هذه المسائل الفارغة، والتي قد تسبّب الأذى للناس والشروع في حديث سيضرّ بالإسلام والدين... [126].

محرّر عمود في جريدة الأخبار أحمد رجب سخر من تصريحات جمعة، كتب يقول: [مع احترامنا] لفتوى المفتي المحترم... كيف يمكن شرب البول عندما تقابل هذه الحاجة دائماً في مكان معزول مخصّص بشكل خصوصي من أجل هذا الغرض؟ هل كان صحابة الرسول يقفون مقابل ذلك المكان الخاص منتظرين حاملين أوعيةً في أيديهم؟ هل يستطيع أي إنسان عاقل تخيّل أنّ النبي كان يجعلهم يقومون بجمع بوله؟[127]

---

[122] الأهرام (مصر) مايو 29، 2007.

[123] الأهرام (مصر) يونيو 3، 2007.

[124] المصري اليوم (مصر) مايو 30, 2007.

[125] الأهرام (مصر) مايو 31، 2007.

[126] الجمهورية (مصر) مايو 24، 2007.

[127] الأخبار (مصر) مايو 21، 2007.

ناك بارقة أمل في هذا الرأي. هذه الفصول تبيّن الحدود التي يرغب المسلمون بأن يُخدَعوا عندها والمدى الذي لن يقوموا بتخطّيه. هنا يكمن اعتقادي أنّه ما أن تظهر الحقيقة العارية للإسلام أمام الملأ وتصبح حماقاته بيّنة وواضحة، فإنّ أعداداً هائلة من المسلمين ستبصر النور وتترك الإسلام فوراً.

محمد أعاد إنتاج التراث الوثني المتمثّل في الصيام برمضان. بأي حال، وجد صعوبة كبيرة في إبقاء نفسه بعيداً عن الطعام والماء من الفجر حتى الغسق، كان هو نفسه يأكل حيثما يشاء. يورد ابن سعد: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نؤخر سحورنا ونعجل إفطارنا[128].

هذه بعض الأمثلة عن كيف أنّ محمد كان يفعل ما يريده وكان يجعل إلهه يوافق على كل ما يفعل. فقد لاحظت عائشة الصغيرة والذكية هذا الأمر وقالت له بشكل بريء أو من قبيل السخرية ذات يوم: والله ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك[129].

لم يكن يرغب محمد أن يخاطر بحياته في أي من الحروب التي خاضها. كان يقف عادةً خلف جنوده مرتدياً معطفين من السلاسل المعدنية المربوطة[130]، أحدها فوق الآخر. هذا التدريع المزدوج كان يجعله ثقيلاً جداً لدرجة أنّ حركاته تصبح ثقيلة وكان بحاجة دائمة للمساعدة في الوقوف والسير. وبينما هو في تلك الحالة كان دائماً يصيح إلى الأمام ويشجّع محاربيه بصوتٍ عالٍ ليحاربوا بجرأة وألا يهابوا الموت، واعداً إياهم بحور عين وطعام سماوي في العالم الآخر. في بعض الأحيان كان يمسك بحفنة من التراب وينثرها في الهواء باتجاه العدوّ لاعناً إياهم.

لتمويل حملاته العسكرية، حضّ رسول الله أتباعه ليساهموا بثرواتهم. شجّعهم لخدمته واحتماله. شجّع تملّقهم له وقطّب بعبوس في وجه المعرضة. عروة، مفاوض قريش، الذي زار محمد بين رجاله في الحديبية شهد كيف أنّ أتباع محمد سارعوا للاحتفاظ بالماء الذي توضأ فيه، لالتقاط بصاقه، أو للحصول على شعرة من رأسه على وشك السقوط[131]. وهذا لا يمكن ترجمته أو صرفه كمبالغة خلال السنوات التالية، كما رأى المؤرّخ وليام موير. محمد، ككلّ زعماء الطوائف الآخرين، خلق شخصية طائفية حول نفسه. ويمكننا رؤية هذا النوع من عبادة الشخصية في الطوائف الحالية في يومنا هذا. هذه هي الطريقة التي يريد أن يعامل فيها النرجسي.

ظنّ محمد نفسه بأنه فوق القانون. إذ كان قد انتهك العديد من القوانين والشرائع الأخلاقية إذا ناسبه ذلك، ثمّ جعل إلهه ينزل عليه آيات تؤكّد له أنّ ما قام به كان صحيحاً.

كان العرب أناساً بسطاء يعيشون في الصحراء، إلا أنهم كانوا يتحلّون بالنزاهة والإباء والفروسية حتى أنهم تفاخروا فيها. خلال العام كانت هناك بضعة شهور حيث كان القتال محرّماً. وكانت تلك الشهور تعرف بالشهور الحرام، حيث كان الناس يسافرون خلالها بحرية وأمان لممارسة طقوس الحج. في أحد تلك الشهور، أرسل محمد حملة إلى نخلة، مكان معروف بأشجاره النخيل، ليضرب حصاراً والترصّد للقافلات التي تحمل الزبيب،

---

[128] الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج1، صـ 369.

[129] صحيح البخاري، ح6، 60، 311.

[130] درع مرن مكوّن من حلقات معدنية مربوطة ببعضها كالسلاسل.

[131] سيرة ابن إسحاق، صـ 823.

السمن، النبيذ، وبضائع أخرى من الطائف إلى مكّة. لكن القتال والقتل في هذا الوقت من العام كان يعتبر تدنيساً. أرسل محمد ثمانية رجال إلى النخلة دون أن يخبرهم أي شيء عن مهمّتهم. إذ أنه كان قد أعطى رسالة مختومة لزعيم الحملة آمراً الرجال أن لا يفتحوا الرسالة إلا بعد أن يصلوا وجهتهم. وعندما فتحوا الرسالة، أدركوا أنّ محمداً كان يطلب منهم فيها بأن يغيروا على القافلة خلال الشهر الحرام. اثنان من الرجال أضاعا جمليهما في الصحراء، فذهبا للبحث عنهما، ولم يشاركا في هذه الحملة. أمّا الرجال الستّة الآخرون ناقشوا المسألة فيما بينهم وأقنعوا أنفسهم أخيراً أنّ أوامر النبي يجب إطاعتها بشكل أعمى حتى وإن تعارضت مع ضمائرهم وبدت لا عقلانية وغير أخلاقية. ولنصب الكمين، حلقوا رؤوسهم وتظاهروا بأنهم يتجهّزون للحجّ، وعندما اطمأنّ لهم رجال القافلة وأخفضوا أسلحتهم، وانقضّوا عليهم، قتلوا منهم واحداً، وأسروا اثنين كرهائن. رجل رابع هرب. وكانت هذه الحملة أول جريمة دموية محسوبة على الإسلام. أول قطرة دم أريقت في تاريخ الإسلام كانت دماء غير المسلمين على أيدي المسلمين. فالمسلمون هم الذين بدأوا بالاعتداء. هم الذين اضطهدوا من ضايقهم وانتقدهم، وليس العكس. كانت هذه الجريمة بمثابة صدمة للقرشيين، الذين أدركوا أنّ خصمهم، الذي يسعى للحصول على القوة والسلطة، لن يكون لديه احترام لأيّ قانون أو عرف.

هناك عدد لا يحصى من الحالات والقضايا حيث انتهك فيها محمد قوانين الأرض ولم يعر أي اهتمام للقوانين والمبادئ الأخلاقية، للنزاهة، للشرف، والتقاليد والأعراف. الإغارة على القوافل التجارية أو مهاجمة القرى ونهب ثرواتها وممتلكاتها يعدّ نهباً وعمل يتنافى مع قوانين أي مجتمع. نصب محمد كمائن لجماعات غير مسلّحة حين لم تكن قد استعدّت بعد للقتال، قتل أكبر عدد ممكن من أفرادها العزّل، استعبد نساءها وأطفالها، وجعل إلهه يوافق على كل أفعاله. كما أنه سمح بممارسة الجنس مع النساء الأسرى، حتى وإن كنّ متزوّجات [النساء 4: 24]

من الزنا إلى تعدّد الزوجات، من الاغتصاب إلى البيدوفيليا، من الاغتيال إلى الإبادة الجماعية، فعلها رسول الله كلها وشجّع أتباعه على فعل نفس الشيء. كان مترفّعاً وفوق السلطات، وكذلك أتباعه.

كلمة "إسلام" تعني "الخضوع". يقول القرآن {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُّ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} [الأحزاب 33: 36] والحقيقة هي أنّه حتى غير المؤمنين ليس لهم خيار. إذ عليهم الخضوع أو القتل. ترجم محمد المعارضة كخيانة. فبالنسبة للنرجسيين، لا يمكن التساهل مع المعارضة. وبالمقابل، نلاحظ أنهم يفزعون ويشعرون بالتهديد والخطر. ذكريات مؤلمة عن الهجران عندما كانوا صغاراً تصعد إلى الشطح لتؤرّق شخصيتهم المزعزعة. إنهم يشعرون بألم عميق ويسعون للانتقام.

رأى محمد عدواً في أي شخص لم يكن يسانده أو يدعمه ويتبعه. كان شديد الارتياب ورأى مؤامرات تحاك ضدّه في كلّ مكان. أقصى نفسه كضحية بطولية لقوى خبيثة متلاعبة تابعة لأعدائه. هؤلاء "الأعداء"، طبعاً، ليسوا موجدين في أي مكان باستثناء عقله وخياله المريض.

أحد العوامل الرئيسية التي أدّت لنجاح محمد كانت تتمثل في أنه كان لديه الكثير من الجواسيس في كل مكان الذين تظاهروا بأنهم كانوا أعداءه وجلبوا له أخباراً من أماكن كان يضعها نصب عينيه. كان شديد الارتياب لدرجة أنه شجّع حتى المؤمنون به للتجسّس على بعضهم البعض. والمسلمون يفعلون ذات الشيء في يومنا هذا.

متخذين من نبيّهم أسوةً حسنة، كانت لديهم عقلية الضحية، وبذلك كانوا يبرّرون أفعالهم الإرهابية. إنهم يعتقدون أنّ هناك قوى مظلمة شريرة تعمل لتدمير الإسلام وأنّ هناك مؤامرة عالمية ضدّ المسلمين يقودها اليهود. إنهم مقتنعون أنّ اليهود يحكمون العالم، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية، التي تأويهم وتتستّر عليهم وتخوض الحروب بالنيابة عنهم ضدّ المسلمين تحت طلب هذه العصابة اليهودية الغامضة والمسيطرة.

المسلمون متيقّظين تجاه كلمات وأفعال بعضهم البعض. كل مسلم يراقب ويتجسّس على الآخرين للتأكّد من اتباع الشريعة الإسلامية. بيئة الإرهاب جرى خلقها في كل البلدان الإسلامية، حيث يصعب أمام أي شخص طرح أصغر الأسئلة حول عقيدة الإسلام. فقريبك قد يخبر عن كفرك، والذي يعني طبعاً موتك المحتّم.

المرضى النرجسيين يعتقدون أنّهم مميّزون وبذلك يستحقّون حسنات وميّزات مجانية. محمد لم يسبق له أن قدّم الشكر لأولئك الذين أدّوا جميع أعماله. وبدلاً من التعبير عن امتنانه، أخبرهم أنهم يجب أن يكونوا شاكرين وممتنّين للحظوة التي نالوها بخدمتهم لله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [البقرة 2: 264]

حاول محمد التعويض عن نقص الحب بالقوّة والسلطة. لقد تاق للحب لأنه لم يتلقّ ما يكفي منه من رعاته الأساسيين. طفولة خالية من الحب هي السبب الأساسي والرئيسي للنرجسية، الاستبداد والسلوك السيكوباتي. تسامح جدّه وعمّه، وفشلهما في وضع حدود له، ممّا فاقم نرجسيّته أكثر. بكى محمد بمرارة فوق قبر والدته، إلا أنّ تلك الدموع لم تكن من أجلها. بل كانت من أجله هو. فالنرجسيين لا يملكون أيّة مشاعر تجاه الآخرين. إنهم واعين فقط، في الواقع واعين تماماً، لمشاعرهم الخاصّة، ألمهم الداخلي وحاجاتهم العاطفية الخاصّة.

(١٣)
مقارنة بين الإسلام وطائفة النرجسي

التالي هو عبارة عن وصف لمذهب أو طائفة النرجسي. أولاً وقبل كل شيء دعونا نرى ما يقوله فاكنين عن طائفة النرجسي ثمّ سأورد مقتبساً نواحي من حياة محمد وأترك للقارئ حرية تقرير ما إذا كان الأمر عبارة عن صدفة.

طائفة النرجسي "تبشيرية" و"امبريالية". فهو في بحث دائم عن مجنّدين جدداً _أصدقاء أتباعه، صديقات بناته، جيرانه، زملاؤه الجدد مكان العمل. هو مباشرةً يحاول "تحويلهم أو هدايتهم" لدين "طائفته"_ لإقناعهم بمدى روعته واحترامه. بمعنى آخر، إنه يحاول أن يحوّلهم إلى مصادر للدعم النرجسي.
في أغلب الأحيان، يكون سلوكه في هذه "المهمّة التجنيدية" مختلفاً عن تصرّفه ضمن "الطائفة". خلال المراحل الأولى في التودّد للأعضاء والمعجبين الجدد وتحويلهم إلى "مجنّدين" محتملين _يكون النرجسي لطيفاً، متعاطفاً، مصغياً، مرناً، متواضعاً ومساعداً. في الطائفة، بين أتباعه "القدماء" فإنه استبدادي، متطلّب، مريد، عنيد، عدواني، استغلالي.

كزعيم لمجموعته، يشعر النرجسي نفسه مخوّلاً بميّزات خاصّة ومميّزة وبفوائد لا تتلائم مع "الرتبة والملف" إنه يتوقع الانتظار من قبل أتباعه، والاستخدام الحر والمفتوح لأموالهم والتخلّص من جذورهم وأصولهم بشكل ليبرالي، ولكي يكون معفى بشكل مضحك من القواعد التي أسّسها هو نفسه (وخصوصاً إذا كان انتهاك تلك القواعد سار ومجزٍ).

في الحالات القصوى، يشعر النرجسي نفسه أنه فوق القانون _أي نوع من القوانين. هذه العظمة والفخامة يقود إلى أفعال إجرامية، علاقات زنا غير شرعية أو تعدّد الزوجات، واحتكاك متكرّر بالسلطات.
لذلك تكون ردود أفعال النرجسي مذعورة وعنيفة أحياناً تجاه "المنبوذين" من طائفته. هناك الكثير من الأمور التي يريد النرجسي إبقاءها تحت سيطرته. علاوةً على ذلك، يثبّت النرجسي إحساسه المتقلّب بالقيمة للنفس من خلال استخراج الدعم النرجسي من ضحاياه. الهجر أو الترك يهدّدان التوازن الشخصي للنرجسي على نحو خطير.
أَضِف إلى ذلك أنّ مخاوف النرجسي وميوله الفصامية، افتقاره إلى الوعي الذاتي العميق، وحسّه المعوّق بالفكاهة (افتقاره للاستنكار الذاتي) والأخطار التي سيواجهها أعضاء طائفته المكرهين واضحة وجليّة.
يرى النرجسي أعداءً ومتآمرين في كل مكان. وغالباً ما يعتبر نفسه على أنه ضحية بطولية (شهيد) لقوى شريرة، مظلمة، وتآمرية. في كل انحراف أو شطط عن عقيدته يترقب حدوث فتنة شريرة ومشؤومة. لذلك فهو مصمّم على إصابة أتباعه بالخمول والجمود _بأي الوسائل وكل الوسائل الممكنة. النرجسي هو شخص خطير[132].

الآن دعونا إذا كان هناك أيةّ أوجه شبه بين هذا الوصف وبين ما نعرفه عن محمد ودينه.

يتّصف الإسلام بأنه تبشيري وامبريالي. هدف محمد الأساسي كان الغزو والسيطرة. فقد حاول إجبار كل من غزاهم أن يسلموا ويعتنقوا دين طائفته، بادئاً بعائلته وأقاربه. فقد طلب من أبو طالب، عمّه وراعيه لاعتناق

[132] The Cult of Narcissist http://samvak.tripod.com/journal79.html

الإسلام وهو على فراش موته. وعندما رفض الرجل العجوز، رفض محمد بدوره الصلاة من أجله وقال بأنه سيذهب إلى النار. وباعتبار ما قام به أبو طالب من أجله، سلّم بوضعه في جحيم ضحلة حيث النار لا تصل إلا إلى كاحليه. بأي حال، صمّم أن يؤسلم أولاد عمّه، عليّ، زوجته، وبعض أصدقائه.

عندما كان محمد لا يزال ضعيفاً وأتباعه كانوا قلائل، كان متواضعاً، مساعداً، مرناً، عطوفاً، ومهذّباً. وهناك تناقض صارخ بين الآيات القرآنية التي كتبت خلال هذه الفترة وتلك التي كتبت في المدينة عندما أصبح قوياً ولم يعد بحاجة لارتداء القناع ليجذب أتباعاً جدد باللطف. في المدينة، أصبح متطلّباً، استبدادياً، مريداً، عدوانياً، واستغلالياً. فهناك قام بالإغارة على القرى والبلدات الآمنة وبعد قتله كل الرجال القادرين جسدياً فها ونهبها، أمر الناجين بالخضوع له، دفع الجزية، أو ليواجهوا الموت.

الأمثلة التالية هي من الآيات المكّيّة:
{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزّمّل 73: 10]
{لكم دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون 109: 6]
{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} [طه 20: 130]
{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة 2: 83]
{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} [ق 50: 45]
{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف 7: 199]
{فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر 15: 85]
{قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِّ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الجاثية 45: 14]
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة 2: 62]
{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت 29: 46]

قارن الآيات السابقة مع أختها من الآيات المدنية عندما أصبح محمد قوياً
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة 9: 123]
{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال 8: 12]
{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران 3: 85]
{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة 9: 5]
{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} [البقرة 2: 191]
{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِّ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِين} [البقرة 2: 193]
{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُّ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة 9: 14]
{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة 9: 66]
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُّ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة 9: 28]
{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِّ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُّ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة 9: 29]

لابدّ أنّ هذا القدر كافٍ كدليل أنّ محمد قد تغيّر بشكل جذري بعد أن امتلك القوة. المبشّر اللطيف، المهذّب، العطوف، والمحبّ قد تحوّل إلى طاغية مستبدّ، متطلّب، قاسٍ، متحجّر القلب.

كان أول ظهور لروح محمد القاسية والمنتقمة بعد معركة بدر. يروي موير:
تمّ جلب الأسرى أمامه. وعندما كان يتأمّلهم الواحد تلو الآخر، وقعت عيناه على النضر ابن الحارث (ابن عمّ محمد وشاعر لطالما انتقده في أشعاره). "محمد والله لقاتلي فإنه نظر إليّ بعينين فيهما الموت" همس النضر مرتجفاً للشخص الذي بجانبه. فأجابه قائلاً أنّ ذلك ليس صحيحاً، وأنّ الأمر من نسج خياله " والله ما هذا منك إلا رعب".

السجين سيء الحظ اعتقد غير ذلك، وتوسّل لمصعب (أحد أصدقاءه الذي تحوّل إلى الإسلام) للتشفّع من أجله. ذكّره مصعب أنه رفض الدين وسخر من محمد. فقال النضر "آه! هل جعلتك قريش أسيراً، فهم لن يقتلوك أبداً!. فأجابه مصعب بازدراء "حتى وإن كان الأمر كذلك، فأنا لست مثلك، الإسلام قطّع أوصال كل العلاقات إرباً".
مصعب، الآسر، وجد أنّ الأسير، والفرصة بالحصول على فدية مجزية، على وشك أن يفلت من يديه، فقال متوسّلاً "لكنّ هذا أسيري". في هذه اللحظة، صدر الأمر "بضرب عنقه" من قبل محمد، الذي كان يرى المشهد بكامله يجري أمامه. إذ أسكته محمد بقوله "إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول" وقطع رأس النضر على يد عليّ.
بعد ذلك بيومين، في منتصف الطريق إلى المدينة، صدر الأمر بإعدام عقبة، السجين الآخر الذي كان بجانب النضر. فخاض مجادلة، وطالب لماذا يجب معاملته بشكل أعنف وأشدّ من باقي الأسرى. "لأنك قلت في الله ورسوله" أجابه محمد. "وابنتي الصغيرة!" قال عقبة متضرّعاً، ومن مرارة روحه، "من ذا الذي يعتني بها؟" _ "إلى الجحيم" صرخ الفاتح القاسي القلب، وبنفس اللحظة ذبحت ضحيته على الأرض. "بئس الرجل كان!" تابع محمد "ظالماً! كافراً بالله، برسوله، وبكتابه! أشكر الله الذي قتلك، وأسعد عيني برؤية ذلك"[133].

هناك قصّة حب رقيقة في كل هذا والتي تسلّط ضوءاً أكبر على قسوة محمد. بعد التمكّن من أسر بعض الأسرى خلال معركة بدر تمّ قتلهم جميعاً لأنهم أهانوا محمداً قبل عدة سنوات، عندما كان في مكّة، وهي إهانة لا يقدر النرجسي على مسامحة مرتكبيها عليها، أمّا بقية الأسرى فقد تمّ الاحتفاظ بهم من أجل الفدية.من بينهم كان أبو العاص، زوج ابنة محمد سابق الذكر، زينب. عائلات الأسرى جمعوا كل ما طلبه قاطع الطريق هذا من أجل إنقاذ أحبّائهم من الموت. أرسلت زينب عقداً من الذهب، والذي قدّمته لها أمّها خديجة بمناسبة زفافها. أمّا بعد رؤيته لذلك العقد والتعرّف عليه بأنه كانت ترتديه خديجة في وقت ما، تحرّكت مشاعر محمد. ووافق على إطلاق سراح أبو العاص من دون فدية لكن بشرط أن تتركه زينب وتأتي إلى المدينة. كان هذا الرجل عاجزاً عن تقديم أي فعل بدافع اللطف والعطف أو إعطاء أي شيء من دون المطالبة بشيء آخر مقابله. وحتى سخاءه وكرمه كانا من أجل إبهار متملّقيه وكسبهم بجانبه. أبو العاص لم يقدر على فراق زوجته. ومن أجل أن يبقى بجانبها اعتنق الإسلام وانضمّ إليها في المدينة، ليفقدها مرّة أخرى عندما ماتت بفترة قصيرة بعد ذلك.

يقدّم المسلمون الإسلام كدين للسلام والتسامح، ويستعرضون طلعاتهم المتبسّمة فقط لخداع المجنّدين المحتملين وتحويلهم إلى أتباع مخلصين ومطيعين. إذ يتظاهرون بأنهم مساعدون جداً، متواضعون، وجذّابون لأولئك الذين يريدون أن يكسبوهم إلى جانبهم وأمام الإعلام. أمّا بين بعضهم البعض، فإنهم يتصرّفون بطريقة مختلفة جداً.

---

[133] السير وليم موير: حياة محمد، ج3، صـ 115-116
Sir William Muir: The Life of Mohamet, Vol. 3 Ch. XII Page 115-116

إنهم استبداديون ومتطلّبون. وما أن تتحوّل إلى الإسلام وتنتهي فترة العسل، سيسقط المسلمون قناعهم الضاحك ويصبحون سيئين وعدوانيين على مستوىً عالٍ. إنهم يتوقعون أن يتوقف المسلم الجديد عن مساءلة الإسلام، وبعد التسليم تموت أي فرصة محتملة للتراجع. وهذا يتناسب مع تعاليم محمد الرئيسية التي صكّها بنفسه ضمن ما يسمّى بالشريعة الإسلامية أو القانون الإسلامي.

شعر محمد نفسه أنه مخوّل بفوائد واستثناءات خاصّة ومعاملة متميّزة لا تتلاءم مع غيره. فهو لم يقم فقط بأمور تتعارض مع أبسط القواعد والمبادئ الأخلاقية، حتى ضمن تلك المجتمعات التي عاش فيها، بل أيضاً انتهك قواعده وقوانينه التي وضعها بنفسه. لقد قام بكل ما يسرّه ويتنافى مع قواعده، ولكن عندما صدِم أتباعه بذلك، أنزل آية من عند ربه ليبرّر من خلال أفعاله ويسكت المنتقدين. فبوجود آية من عند الله، كان أي شخص ينتقده أو يتفوّه بكلمة حول نفاقه يصبح ناكراً وكافراً بالله، وتكون عقوبة هذا الشخص هي الموت. ما كان يقوله كان يعتبر فصل الخطاب. والأمثلة كثيرة. وهنا بعضاً منها:

القرآن يلزم المؤمنين بأربعة زوجات. والحال، اعتقد محمد أنه لا يجب أن يكون مقيداً بقوانينه التي وضعها هو ولذلك جعل إلهه ينزل عليه الآيتان رقم 49 و50 من سورة الأحزاب تخبره بأنه استثناء وأنه يمكن أن يحصل على ما شاء من النساء حسب رغبته، كزوجات، أو أمات، أو ملك اليمين. ثمّ أضاف {لَكَ [يا محمد] مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [ككلّ] ... لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}

أي حرج؟ حرج امتلاكه السيطرة على شهواته ورغباته، كونه كائن بشري نزيه وعاقل، مخلص لامرأة واحدة! هل نؤمن برجل وجد حرجاً في السيطرة على رغباته الحيوانية الشهوانية بوصفه أفضل الخلق؟ أليس للأفعال صدى أقوى وأبلغ من الكلمات؟ فمن ناحية، قضى حياته كوحش شهواني، ومن ناحية أخرى تحدّث عن نفسه بتعالٍ، واضعاً كلمات على لسان القدير ليصلّي عليه. تذكّر أنه حينما كان في مكّة، يعتاش على ثروة زوجته لم يكن يجرؤ على جلب امرأة أخرى إلى المنزل. لكنّ كلّ أوهامه بدأت عندما وصل إلى السلطة. هل لنا أن نصدّق بأنه كشاب لم يجد صعوبة في النوم مع امرأة أكبر منه بكثير وأنّ مشاكله ظهرت خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته عندما أصبح كبيراً في السن ومحاصراً بشتى أنوا ع الأمراض؟ أو هل نترجم هذا الكلام كإشارة أخرى على رجل عجوز شهواني وجد حريته لممارسة شهواته والذي، كطفل ترك على حريته في مخزن للحلوى، لم يكن قادراً على وضع حدود لنفسه؟

في إحدى الأيام زار محمد زوجته حفصه، ابنة عمر وخلال لقائهما أعجبته جاريتها ماريا. كانت مارية فتاةً شابة قبطية في غاية الجمال أرسِلت كهدية من المقوقس ملك مصر إلى محمد. أرسل حفصه في مهمّة، كاذباً عليها بأنّ أباها يريد رؤيتها. سرعان ما غادرت، أخذ محمد مارية إلى سرير حفصه ومارس الجنس معها. ما أن عرفت حفصه أنّ والدها لم يرسل إليها، عادت فوراً إلى منزلها لتجد السبب الذي كان يريد محمد أن يتخلّص منها من أجله. غضبت وأثارت ضجّة. (آه، المرأة هي المرأة) ولتهدئتها، وعدها محمد أن يحرّم مارية على نفسه. بأي حال، ظلّ مغرماً بتلك الفتاة الشابّة ويشتهيها. لكن كيف له أن يحنث بالوعد؟ حسناً، ذلك سهل عندما يكون لديك إله كالخاتم في إصبعك. فخالق الكون أنزل له سورة التحريم وأخبره أن لا ضير في أن يحنث وعدة ويمارس الجنس مع الجارية الشابة لأنّها كانت "ملك يمينه". في الواقع، كان هذا الإله العظيم، الذي أخذ يتصّرف مثل القوّاد لصالح نبيّه، غاضباً من نبيّه ووبّخه لأنّه حرم نفسه متعاً جسدية ولأنه قطع وعداً بأن يكون رجلاً محترماً ومخلصاً فقط ليرضي زوجاته! (كما أنّ اسم السورة مشتقّ من هذه الحادثة التحريم)

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم 66: 1-5]

يقول ابن إسحق: ((أم إبراهيم مارية القبطية أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في نوبتها, فوجدت حفصة: فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي قال: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها» قالت: بلى فحرمها))[134].

كالعادة، برّر المسلمون حنث محمد لقسمه. بغضّ النظر عمّا فعله محمد، فسيظلّ المسلمون دائماً يبرّرون أفعاله. لقد تنازلوا عن عقولهم وأخضعوها لسيطرته وتوقفوا عن التفكير بطريقة عقلانية. يتابع ابن سعد بالقول أنّ قاسم ابن محمد قال أنّ هذا القسم الذي أطلقه النبي وحرّم مارية على نفسه باطل _فهو لم يصبح من الحرمات[135].

السؤال هنا هو، إذا كان ذلك القسم باطلاً، فلماذا اتخذه، وإذ كان صالحاً أو جارياً، فلماذا انتهكه؟ هناك الكثير من الأمثلة الأخرى لانتهاك محمد وعوده وعهوده. هنا قد أقسم بالله نفسه ولم يشكّل ذلك أي مانع أو عائق بالنسبة له. فإلهه كان من نسج خياله ولم يكن هو غبياً لدرجة أن يسمح لخياله أن يوقفه عن ممارسة الجنس مع مارية الجميلة. الفكرة بكاملها من اختراع ذلك الإله كانت لتبرير فعل كل ما يتمنّاه من دون عوائق أو قيود. فالرب الذي يضع قيوداً عليه لن يتناسب ذلك مع غرضه بأن يصبح نبياً.

نسختي من القرآن تتضمّن على التفسير التالي لسورة التحريم:
وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية القبطية أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في نوبتها, فوجدت حفصة: فقالت: يا نبي الله لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي قال: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها» قالت: بلى فحرمها وقال لها «لا تذكري ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى: {يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك} الآيات كلها. فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن يمينه وأصاب جاريته... قال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: «لا تخبري أحداً وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال: «فو الله لا أقربها» قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة. قال: فأنزل الله تعالى: {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم}[136].

بالنسبة للمسلمين الوعود والأقسام لا قيمة لها. فهم يعدون بشيء ثمّ يخلفون وعدهم لو كان أمامهم الخيار.
البخاري ينقل إلينا حديثاً حيث يقول فيه محمد ((إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثمّ أرى خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير))[137]، وكان قد نصح أتباعه بأن يفعلوا نفس الشيء ((من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفر عن يمينه))[138].

---

[134] ابن إسحق، طبقات، ج8، صـ 195.

[135] السابق

[136] تفسير ابن كثير لسورة التحريم

[137] صحيح البخاري، ج7، 67، 424.

[138] صحيح البخاري، ج9، 89، 260.

لا يمكن الثقة بالمسلمين. فكلماتهم لا تعني شيئاً، وعودهم غير ملزمة حتى أنّ عهودهم لا تساوي أي قيمة. وهذا أمر يتناسب اضطراب الشخصية النرجسي. فالنرجسيون يعتقدون بأنهم مخوّلون بأيّ شيء يرغبون به وأنّ عهودهم والتزاماتهم غير ملزمة لهم.

في أحد الأيام ذهب محمد لرؤية ابنه بالتبني زيد وكانت هناك زوجته زينب، بالكاد ترتدي ثياباً عليها. فوقعت بقلبه لجمالها ولم يستطع السيطرة على رغباته: ((تبارك الله أحسن الخالقين)) دمدم بشهوانية، وعندما علم زيد بذلك، وجد نفسه ملزماً بأن يطلّق زوجته ليحصل عليها محمد. الأمر المثير للاهتمام هنا أنه وقبل عدّة سنوات، عندما زعم محمد بأنه صعد إلى السماء، زعم أنه التقى بامرأة. سأل عنها، فقيل له أنها زينب، زوجة زيد. فيما بعد قصّ هذه الرواية التي تنطوي على مفارقة على زيد الذي، كان يعتقد أنّ زواجه كان مخطّطاً له في السماء، تزوّجها. بأي حال، عندما رأى محمد زينب شبه عارية، نسي كل شيء قاله فيما يتعلّق بفبركته السماوية. طبعاً، لم يكن أحداً يعلم أفضل منه أنّ كلّ قصّة المعراج كانت من نسج خياله.

زواج محمد من زينب، زوجته ابنه بالتبني [كنّته]، فاجأت حتى أتباعه وأربكتهم. ولإسكات منتقديه، أصبح إلهه خاتماً في إصبعه مرة ثانية، بآية تقول أنّ محمداً لم يكن والد أحد بل هو رسول الله وخاتم الأنبياء. {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهَّ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} [الأحزاب 33: 40]. زعم أنّ زواجه من زينب كان مخطط له من قبل الله ليظهر للناس أنّ التبنّي كان أمراً سيئاً وينبغي إبطاله وإلغاؤه. كما ترى، فقط لأنه لم يكن يمكنه السيطرة على نزوته، جعل إلهه المزيّف يخبر الناس أنّ التبنّي كان أمراً خاطئاً، حارماً بذلك ملايين الأطفال الأيتام من فرصة ثانية في الحياة. أليس هذا الشيء لوحده ينزع عنه صفة رسول الله؟ كيف يمكن لإله عظيم وقدير أن يشعر بالإهانة من التبنّي؟

هناك قصّة مثيرة لها علاقة بموضوعنا هذا. بعد أن ألغى محمد مؤسسة التبني، أبو حذيفة وزوجته سهلة اللذين كان لديهما ابن متبنٍ يدعى سالم، جاءا إلى محمد طلباً للمشورة ((يا رسول الله إني أري في وجه أبي حذيفة من دخول سالم وهو حليفه)) وردّاً على سؤالها قدّم لها محمد حلاً بارعاً ((فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارضعيه)) ((قالت وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟)) فابتسم محمد وقال لها ((وقال قد علمت أنه رجل كبير)). في الواقع، كان سالم كبيراً جداً ليشارك في معركة بدر. رواية أخرى تقول أنّ محمد ابتسم أو ضحك[139].

حسب محمد، الرضاع يؤسّس لدرجة معيّنة من العلاقة الأمومية، حتى إذا أرضعت المرأة طفلاً ليس لها من الناحية البيولوجية. ملهماً بهذه الأعراف والتقاليد، الدكتور عزّت عطيّة من جامعة الأزهر في مصر، إحدى المؤسّسات الإسلامية المرموقة وذات المكانة العالية، قدّم طريقة جديدة لفصل الجنسين ضمن مكان العمل. فقد أصدر فتوى سمح فيها للنساء بإرضاع زملائهنّ من الذكور "مباشرةً من الثديين" على الأقل خمس رضعات لخلق رابطة عائلية وبهذا يسمح لهم الاختلاط معاً في مكان العمل. يقول: ((إرضاع الكبير يضع نهاية لمشكلة الاختلاط، ولا يمنع الزواج. فالمرأة في العمل يمكنها نزع خمارها أو كشف شعرها أمام أي ذكر أرضعته من ثدييها))[140].

ومع ذلك هناك بعض المسلمين ليست لديهم أدنى مشكلة مع هذه الفتوى، بما أنها تقوم على حديث صحيح ومعترف بأصالته، أثار هذا القرار القانوني غضباً عارماً في كافة أنحاء مصر والعالم العربي وأجبر الدكتور عطية على سحب فتواه.

---

[139] صحيح مسلم، 8، 3424، 3425، 3426، 3427، 3428.

[140] http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6681511.stm

(١٤)
محمد يشعر بالنشوة

إنّ فهمنا الحديث للعقل البشري وطريقة عمله يسلّط الضوء على تجارب محمد الداخلية، والتي عبّر عنها بلغة مدهشة. ولتفادي نعته بالكذّاب، جعل الله يصف ما رآه هو. {وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} [سورة النجم 6-18]
وفي آية أخرى أكّد مرئية تجربته التي مرّ بها:
{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير 23]

حديث يخبرنا عن تجربة محمد عند نزول الوحي على الشكل الآتي:
((عن أبي هريرة قال كان إذا نزل عليه الوحي صدع فيغلف رأسه بالحناء))[141].
إلا أنّ أحدهم سأله عن كيفية نزول الوحي:
((عن عائشة أنّ الحارث بن هشام سأل رسول الله صلعم، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله صلعم: أحياناً يأتيني مثل "صلصلة الجرس" وهو أشدّه فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: وقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً))[142].

روى زيد بن ثابت ((كان إذا نزل عليه [النبي] الوحي ثقل لذلك وتحدّر جبينه عرقاً كأنه جمان))[143].
ويروي لنا ابن سعد ((كان إذا أوحي إليه وقذ [الوَقِذ يعني المنهك والمثخن من شدة الضرب] لذلك ساعة كهيئة السكران))[144].

((عن عمر بن الخطاب قال كان النبي صلعم إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه كدوي النحل))[145].
((وروى ابن إسحاق عن شيوخه أنه صلعم كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك هذا يدل على أنه صلعم كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه

---

141 منتخب كنز العمال حرف الشين باب نزول الوحي رقم -18470

142 صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلعم. كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي صلعم في البرد وحين يأتيه الوحي.

143 صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك. صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف. منتخب كنز العمال، حرف الشين، باب نزول الوحي، رقم 1846.

144 الطبقات الكبرى، ابن سعد، ذكر شدة نزول الوحي على النبي صلعم.

145 المسند للإمام أحمد بن حنبل مسند عمر بن الخطاب. الترمذي كتاب التفسير ومن سورة المؤمنون. المستدرك للحاكم باب تفسير سورة المؤمنون عن عمر. فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب بدء الوحي أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس. منتخب كنز العمال حرف الشين باب نزول الوحي رقم -18466

الإغماء بعد حصول الرعدة وتغميض عينيه وتربد وجهه ويغط كغطيط البكر فقالت له خديجة أوجه إليك من يرقيك قال أما الآن فلا ولم أقف على من كان يرقيه ولا على ما كان يرقى به))[146].

وينقل لنا ابن كثير حديث طويل في تفسيره لسورة العلق عن حالة محمد خلال الوحي:
((عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فاجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فقلت: ما أنا بقارىء ــ قال ــ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: { ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ } - حتى بلغ - { مَا لَمْ يَعْلَمْ } " قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: " زمّلوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: " يا خديجة مالي؟ " وأخبرها الخبر وقال: " قد خشيت على نفسي ".
فقالت له: كلا، أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أو مخرجي هم؟ " فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به، إلا عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً.
ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا، حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن بذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل، تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك))[147].

إنّ قصة ابن عم خديجة ورقة [بن نوفل] وهو يتعرّف على محمد بوصفه رسولاً لله، على أساس دراساته للكتاب المقدس، هي هراء وكلام فارغ طبعاً. هذا هو بالضبط ذلك النوع من القصص التي سيلفّقها محمد لدعم مزاعمه. لا يوجد هناك أي شيء في الكتابين المقدسين اليهودي والمسيحي يشير إلى محمد بشكل مباشر أو غير مباشر. ورقة كان ميتاً، وشعر محمد بأنه حر في فبركة الأكاذيب ونسبها إلى ورقة تماماً كما لفّق المزاعم بأنّ جده قال له بأنّ هناك قدراً عظيماً ينتظره. وليس من المستغرب أن تقوم خديجة، الاعتمادية المنعكسة، بتأييد تلك الأكاذيب المحمدية. الاعتمادي عادةً يقوم بتأييد وتأكيد أكاذيب ومزاعم شريكه النرجسي. وهناك حالة مشابهة وهي عندما سافر محمد إلى بصرى عندما كان يعمل لحساب خديجة. فقد زعم أنه ما أن وصلت القافلة إلى مشارف مدينة بصرى، جلس في ظل شجرة فرآه كاهن نسطوري، فأطل الرّاهب إلى ميسرة وهو الصبي الذي يعمل لدى خديجة وكان يرافق محمد، فقال: من هذا؟ فقال: رجل من قريش، قال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلاّ نبيّ.

---

[146] السيرة الحلبية باب بدء الوحي له صلعم.

[147] ابن كثير، تفسير سورة العلق

وحسب القصة التي رواها محمد كان الراهب قد لاحظ وجود غيمتين صغيرتين فوق رأس النبي تظلّلانه من حرّ الشمس. ثُمَّ قَالَ : فِي عَيْنَيْهِ حُمْرَةٌ ؟ قَالَ مَيْسَرَةُ : نَعَمْ ، لا تُفَارِقُهُ ، قَالَ الرَّاهِبُ : هُوَ هُوَ آخِرُ الأَنْبِيَاءِ[148].

في موضعٍ آخر زعم أنّ تلك الشامة الكبيرة الموجودة بين كتفيه هي رمز نبوّته. وحتى الآن لم أجد أي إشارة في الكتب المقدّسة تشير علامة نبوة تتمثّل في شامة بين الكتفين واحمرار حول العينين. الاحمرار المزمن للعين هو حالة طبية تسمى بالتهاب الجفنِ blepharitis سببه التهاب حاد في جفني العين. وهناك حالة من التهاب الجفن تتمثّل في خلل بوظيفة الغدة الميبومية MGD حيث تترافق هذه الحالة بخلل في الجلد يسمى "بالتورّد" Rosacea، والتهاب الجلد الدهني seborrheic dermatitis. وتتمثّل حالة التورّد باحمرار في الوجه. وقد وصف علي بن أبي طالب، ابن عم محمد وزوج ابنته فاطمة، وجه محمد بالأبيض-المحمرّ[149].

لقد عثر محمد لنفسه على جمهور ساذج وشعر بالحرية لإخبارهم بأي شيء، فقد كان يعلم تمام العلم أنهم سيصدقونه ويؤمنون بكل ما يقول، لذا حتى أعراض مرضه كان يزعم أنها دلائل نبوته. لا يوجد أي ذكر للصبي ميسرة بين المؤمنين الأوائل. فإذا كانت قصة محمد حقيقية وصحيحة، لابد أنّ ميسرة كان ليكون من أوائل المؤمنين بنبوة محمد. في الحديث الوارد في الأعلى، يمكننا ملاحظة الدور الهام الذي لعبته خديجة منذ نشوء الإسلام. فعندما تراءى لمحمد أولى هلوساته ظنّ أنه مجنون أو ممسوس. كانت خديجة هي التي طمأنته وأكّدت له أنّ الله قد اختاره ليكون نبيه وهي التي شجّعته ودفعت به في طريق النبوة.

بعض هلوسات محمد كانت مرئية، وبعضها كانت سوماتية وبعضها سمعية. كتب ابن إسحاق قائلاً: ((كان النبي إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية من أجل أن يقضي حاجته، قال : فلا يمر بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال له : " السلام عليك يا رسول الله " ، يسمع صوت السلام عليك يا رسول الله ، كان يلتفت عن يمينه وعن شماله ومن خلفه فلا يرى أحداً))[150].

كان محمد يعاني من هلوسات أخرى كثيرة. ((قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، فرده الله خاسئاً))[151]
والمريض الذي يعاني من أغراض الخلل أو الاضطراب العقلي غالباً ما يكون غير قادر على التفريق بين الخيال والواقع. قالت عائشة ((سُحِرَ النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إنه ليتخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعل ، حتى إذا كان ذات يوم - وهو عندي - دعا الله ودعا ، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ..؟
وكان الذي تولى ذلك: لبيد بن الأعصم اليهودي ، ثم دسها في بئر لبني زريق يقال لها ذروان .
فمرض رسول الله وانتثر شعر رأسه ، ولبث ستة أشهر ، يرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهن ، وجعل يذوب ولا يدري ما عراه . فبينما هو نائم ذات يوم : إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه . فقال الذي عند رأسه: ما بال الرجل ؟ قال: طُبّ . قال: وما الطُبُّ ؟ قال: سِحْرٌ . قال: ومَن سَحَرَه ؟ قال: لَبيد بن الأعصم

---

[148] الطبقات، جزء1، ص119

[149] الترمذي، 1524

[150] ابن إسحاق، ص105

[151] فتح الباري، لابن حجر، حديث رقم 461

اليهودي. قال: وبم طبه ؟ قال: بمُشْط ومُشَاطة . قال: وأين هو ؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ تحت راعوفَة في بئر ذَرْوان.[و "الجف " : قشر الطلع . و " الراعوفة " : حجر فى أسفل البئر ، يقوم عليه الماتح بالدلو]. فانتبه رسول الله يا عائشة .. أما شعرت أن الله أخبرني بدائي..!! ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجف ، فإذا هو مشاطة رأسه وأسنان مشطه ، وإذا فيه وتر معقود فيه أحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر فأنزل الله تعالى سورتي المعوذتين فجعل كلما قرأ آية : انحلت عقدة ، ووجد رسول الله خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما أُنشِطَ من عِقال ، وجعل جبريل عليه السلام يقول: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك ، ومن حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا: يا رسول الله ..!! أولا نأخذ الخبيث فنقتله ..؟ فقال: أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شراً))[152].

في حديث آخر نقرأ ((جاء رجل إلى النبي صلعم وهو بالجعرانة عليه جبة وعليها خلوق أو قال أثر صفرة فقال كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي قال وأنزل على النبي صلعم الوحى فستر بثوب وكان يعلى يقول وددت أني أرى النبي صلعم وقد نزل عليه الوحى - قال - فقال أيسرك أن تنظر إلى النبي صلعم وقد أنزل عليه الوحى قال فرفع عمر طرف الثوب فنظرت إليه له غطيط - قال وأحسبه قال - كغطيط البكر - قال - فلما سري عنه قال " أين السائل عن العمرة اغسل عنك أثر الصفرة - أو قال أثر الخلوق - واخلع عنك جبتك واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجك))[153]. حديث آخر ((كان إذا أنزل عليه الوحي أثر عليه كرب لذلك وتربد وجهه))[154].

هنا أسرد عليكم قائمة بالآثار السيكولوجية والفيزيائية لوقع "الوحي" على جسد محمد وعقله على أساس ما جاء في عدة أحاديث:

1) رؤى (هلوسات) حيث يرى ملاكاً أو نور ساطع ويسمع أصواتاً.
2) تشجنّات في جميع أجزاء جسده وألم مبرّح، إرهاق، وتعب. 3) تطغى عليه فجأة مشاعر الخوف والقلق.
4) رجفان واختلال في عضلات العنق. 5) حركة الشفتين غير مسيطر عليها، تلمّظ الشفتين.
6) تعرّق غزير حتى في البرد القارص 7) تورّد الوجه
8) تغيّر سيماء وجهه. 9) تسارع في ضربات القلب.
10) يغطّ كغطيط البكر، أي يشخر كما يشخر الجمل.
11) يشعر بالدوار والإعياء. 12) تنتابه أفكار انتحارية.

جميع هذه الأعراض هي أعراض ما يسمى "بصرع الفصّ الصدغي" Temporal Lobe Epilepsy اختصاراً TLE. وهناك سمة هامة أخرى تميّز هذا المرض وهي أنّ النوبة تحدث من دون أي إنذار مسبق للمريض. وهذه كانت الحال في تجارب محمد الباطنية. يروي لنا البخاري أنّه عندما كان النبي يتحدّث عن فترة انقطاع الوحي، قال ((فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، قال رسول الله صلعم: فجئثت منه فرقاً فرجعت، فقلت: زمّلوني زمّلوني، فدثّروني))[155].

---

[152] رواه : البخاري، عن عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة. ولهذا الحديث : طرق فى الصحيحين. الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدة النيسابوري (المتوفى468هـ - 1076م) من كتابه "أسباب النزول".

[153] صحيح مسلم كتاب الحج باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح وبيان تحريم الطيب عليه

[154] المسند للإمام أحمد بن حنبل باب مسند أبن عباس. أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب عرق النبي صلعم. وكتاب الحدود باب حد الزنا. منتخب كنز العمال حرف الشين باب نزول الوحي رقم -18465

[155] صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلعم.

(١٥)
أفكار انتحارية

يخبرنا المؤرّخون أنّ محمداً حاول الانتحار في عدّة مناسبات، حيث كان يوقفه الملاك جبريل في كل مرة. في البداية ظنّ أنه شاعر أو كاهن: ((قال: ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون . كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت:إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون! لا تحدث بها عني قريش أبدا! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن! قال: فخرجت أريد ذلك. حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد! أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فوقفت أنظر إليه، وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك))[156].

والطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها فهم هذه الرؤيا هي أنّ الصورة التي كان محمد يراها كانت داخل عقله فحسب، وتتحرّك معه في أي اتجاه يحرّك فيه رأسه. الصورة على غلاف الكتاب تظهر الملاك جبريل وهو يظهر في عدة أماكن بشكل آني. والحال، محمد لم يصف تجربته بهذا الشكل. ما رآه محمد يمكن وصفه كهلوسة مرئية. تحدث الهلوسات المرئية في أنماط مختلفة من الظروف غير المتعلقة بالطب النفسي من بينها الأذيات المخية والدماغية، الحرمان الشعوري الحسي، واستخدام العقاقير والأدوية المخدّرة، والشقيقة. بعض الهلوسات تكون بسيطة (أي أنّ المريض يرى ضوء، نور ساطع، ألوان، أو أشكال هندسية بسيطة). هذه الأنواع من الهلاوس تحدث عادةً في حالة "صرع الفصّ القذالي Occipital lobe epilepsy.

أمّا الهلاوس البصرية المعقدة والمركّبة والأوهام المرئية، كتلك التي اختبرها محمد، تحدث في حالات نوبات صرع الفص الصدغي وغيرها من الاضطرابات العصبية كمرض باركنسون ومرض كروتزفيلت-جاكوب. هذه الهلاوس هي عادة صور حية لحيوانات، أشخاص أو كائنات أسطورية كالملائكة والجان[157]. ويمكن أن تكون مصحوبة بهلوسات سمعية، ذوقية، شمية، بل وحتى حسية-جسدية. الهلوسات الحسية-الجسدية والحركية غالباً ما تكون مصاحبةً لنوبات صرع الفص الصدغي. وهذا ما يفسّر تجربة محمد في غار حراء حين شعر أنّ الملاك جبريل قد سحبه وعصره بقوة حتى شعر بألم مبرّح في جوفه لدرجة أنه شعر بأنه سيموت.

يقول العالم والباحث سكوت أتران موضحاً ((التغيرات المفاجئة في نشاط حُصَين آمون واللوة المخية يمكن أن يؤثر على المستقبلات السمعية والرؤيوية والشمية والحسية والذوقية وتؤدي إلى هلاوس تتضمن سماع أصوات أو موسيقى، مشاعر بالأرجحة أو طفو الجسد في الهواء، طعماً كالإكسير، حارقاً أو ليّناً، رائحة الجنّة أو لهيب النار. على سبيل المثال، لأنّ القسم الأوسط من اللوزة المخية تدخله ألياف عصبية من المجرى الشمي، فإنّ أي إثارة مقصودة لذلك الجزء من اللوزة المخية سيعيد اختبار العديد من الروائح القوية. في الطقوس الدينية، تعمل العطور والروائح البخورية على إثارة اللوزة المخية، أي أنّ هذا النوع من الروائح يمكن أن يستخدم لتركيز الانتباه

---

[156] رواه ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد، سيرة ابن إسحاق، ص106.
تعليق إضافي ليس من المؤلف: ينكر البعض محاولة محمد للانتحار، إلا أن الخبر ورد في صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي (أرجو أن تراجعوه بأنفسكم لتتيقنوا، حديث رقم ٦٩٨٢). ويرد بعض المسلمين الحادثة بأنه من معلقات البخاري (أي: ليست من مسنداته)، فإن كان الخبر ساقطاً عند البخاري ؛ فلم يذكره أصلاً؟!

[157] الجان أرواح وكائنات خبيثة ومضلّلة في الميثولوجيا العربية، قادرة على التنكّر بهيئة إنسان أو حيوان.

على الأحداث المحيطة ومعالجتها والتفاعل معها. في حالات صرع الفص الصدغي، فالتدفّقات الكهربائية المفاجئة في المنطقة تنفخ في مجالات أخرى من هذه التجربة الصرعية بروائح عطرية))[158].
يصف محمد جبريل بأنّ لديه 600 جناح[159]. ومن الصعب جداً تصوّر ذلك حتى. البراق، أو الدابة التي ام تطأها محمد ليعرج في رحلته المزعومة إلى القدس ثم إلى السماء، تمتلك رأساً بشرياً وجناحي صقر. وباستثناء أولئك الذين يقرّرون الإيمان بالسخافات وتصديقها، فمن الواضح أنّ محمداً كان يهلوس.

يصف الباحث والمؤرخ المصري المسلم [محمد حسين] هيكل الملاك كما رآه محمد خلال زيارته للسماء. ((وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علقت عليها النجوم بسلاسل من ذهب [وهذا يثبت بما لا يدع مجال للشك أنّ محمداً لم يكن يعرف ماهية النجوم. قد تصوّرها أنها أشياء كأضواء شجرة عيد الميلاد المعلّقة على صفحة السماء السوداء. وهذه الفكرة متطابقة مع المفهوم البطليمي للفلك وكان معتقداً شائعاً ومنتشراً زمن محمد.]، وقد قام على كلٍ منها مَلَك يحرسها حتى لا تعرج الشياطين إلى عَلو عليها أو يستمع الجنّ منها إلى أسرار السماء)) . هذا النوع من السخافات واللامعقول موجود أيضاً في القرآن، حيث جاء فيه أنّ الشياطين والجان كانت تقف على أكتاف بعضهم البعض ليستقروا السمع إلى ما يجري من محادثات في السماء بين الملائكة، فكانوا يرجمونهم بتلك النجوم والشهب كالصواريخ والقذائف. في الأيام الخوالي كان الناس يعتقدون أنّ المذنبات رجوم للشياطين[160].

يتابع هيكل قائلاً ((في هذه السماء ألقى محمد التحية على آدم، وفيها كانت صور الخلق جميعاً تسبّح بحمد ربها. ولقي محمد في السموات الست الأخرى نوحاً وهارون وموسى وإبراهيم، وداؤود وسليمان وإدريس، ويحيى [يوحنا المعمدان] وعيسى. ورأى فيها ملك الموت عزرائيل، بلغ من ضخامته أن كان ما بين عينيه مسيرة سبعين ألف يوم. [وهذا بالكاد أكبر بعشرات المرات من المسافة ما بين القمر والأرض] ومن سلطانه أن كان تحت إمرته مائة ألف فرقة، وكان يسجّل في كتابٍ ضخم أسماء من يولدون ومن يموتون [قد يتبرّع أحدهم بجهاز كومبيوتر لعزرائيل ليرتاح من هذا العبء] ورأى ملك الدمع يبكي من خطايا الناس، ملك النقمة ذا الوجه النحاسي المتصرّف في عنصر النار والجالس على عرش من لهب. وقد رأى كذلك ملكاً ضخماً نصفه من نار ونصفه من ثلج وحوله من الملائكة فرقة لا تغتُر عن ذكر الله قائلةً: "اللهم قد جمعت الثلج والنار، وجمعت كل عبادك في طاعة سُنّتك". وكان في السماء السابعة مقرّ أهل العدل ملك أكبر من الأرض كلها، له سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان، يتكلّم كل لسانٍ سبعين ألف لغة، من كل لغةٍ سبعين ألف لهجة، كلها تسبّح بحمد الله وتقدّس له))[161].

---

[158] سكوت أتران، علم الأعصاب اللاهوتي: الدماغ، العلم، الروحانيات، والتجربة الدينية.
Scott Atran, NeuroTheology: Brain, Science, Spirituality, Religious Experience by Chapter 10
http://jeannicod.ccsd.cnrs.fr/docs/00/05/32/82/RTF/ijn_00000110_00.rtf

[159] ((عن ابن مسعود عن النبي قال : رأيت جبريل له ست مائة جناح)) منتخب كنز العمال حرف الخاء باب خلق الملائكة عليهم السلام. رقم- 15162. ((وعن ابن مسعود عن النبي قال: رأيت جبريل عند السدرة وعليه ستمائة جناح ينتثر من ريشه تهاويل)) (تهاويل: الأشياء المختلفة الألوان. النهاية 283/5 أبو الشيخ. منتخب كنز العمال حرف الخاء باب، الإكمال، من خلق جبريل عليه السلام رقم 15169)

[160] قرآن: سورة الجن 8، الصافات 6-10، المنافقون 6.

[161] محمد حسين هيكل، حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ص204

كان محمد يمتلك مخيّلة واسعة جداً. لكنّ تفكيره كان ملتوٍ بأيّة حال. مثل هذا الكائن لا يمكن تصوّره حتى، ناهيك عن وجوده في عالم الواقع.
ـ محمد يرى ملاكاً أكبر من الأرض، وهذا تناقض بحد ذاته.
ـ هذا الملاك له 70000 رأس، وفي كل رأس 70000 وجه.(أي أنّ هذا الكائن كان يمتلك بالمجمل 4900000000 وجه)
ـ كل وجه له 70000 فم (أي يمتلك بالمجمل 343000.000.000.000 فم)
ـ كل فم فيه 70000 لسانه (وهذا مجموعه 24010.000.000.000.000.000 لسان)
ـ وكل لسان يتكلّم 70000 لغة (وهذا مجموعه 1680.700.000.000.000.000.000.000 لغة مختلفة. أي أكثر من 1.68 سبتيليون لغة).

لماذا الله بحاجة لخلق مثل هذا المخلوق الغريب، فقط ليمجّده إلى الأبد وبلغات مختلفة؟ مثل هذا الكائن لا يمكن أن يتصوره إنسان عاقل، إنما المريض الذي يعاني من هلوسات متأزّمة هو وحده القادر على تخيله. تصوّر شخصاً ما يملأ بيته بأجهزة الكومبيوتر والحواسيب وآلات التسجيل ويبرمجها لتمجيده وتسليحه طوال الوقت وبجميع اللغات! ألن يكون ذلك الشخص مجنوناً؟!!! إنّ الله الذي يمثّل أنا محمد المشخصن الآخر وكل ما يريده هو أن يكون. سيكولوجية الله هذا تعكس سيكولوجية محمد نفسه. فوصفه نرجسياً، كان لديه توق شديد لا يشبع للتمجيد والتقدير، وهكذا كان إلهه انعكاساً أو إسقاطاً لأناه الخاصة.

كان محمد وحيداً، يشعر بالوحدة. فبالرغم من زواجه من امرأة ذات مكانة ونسب، لم يكن هو نفسه شخصاً مهماً بذاته وكان منبوذاً من قبل قومه. تجاربه الهلوسية، التي فسّرتها زوجته كعلامة على النبوة، كانت أعظم مصدر نرجسي له. وعندما توقفت تلك التجارب، شعر بالكآبة والخيبة. يقول فاكنين: ((الاكتئاب هو أحد المكوّنات الأساسية في التركيبة العاطفية للنرجسي. ويتعلّق الاكتئاب بشكل رئيسي بغياب أو انعدام المَدد النرجسي. كما يتعلّق بالحنين والشوق لأيام أكثر سعادة، مليئة بالحب والاهتمام والتقدير... الاكتئاب هو نوع من النكوص. هذا النكوص يتحوّل ويُوَجّه إلى الشخص المكتئب بدلاً من الوسط المحيط به. هذا النظام من النكوص الاكتئابي المتبادل مهم جداً وحيوي بالنسبة للنرجسية والاكتئاب... فالنرجسي، بأية حال، حتى عندما يكون مكتئباً، لا يتخلّى عن نرجسيته: هوسه بعظمته، جلاله، هيبته، شعوره بالأهمية، عجرفته، عطرسته، وقسوته))[162].

وهذا يفسّر لنا سبب اكتئاب محمد وأفكاره الانتحارية التي لازمته طويلاً، بالإضافة إلى أنه يفسّر لنا لماذا لم تبلغ تلك الأفكار ذروتها وتدفعه لقتل نفسه فعلاً. النرجسيون نادراً ما يقدمون على الانتحار. ويبدو غريباً أنّ محمد، خلال العديد من المناسبات، كان يحاول الانتحار وفي كل مرة كان يتراءى له جبريل وينقذه، لكنه كان يعاود محاولته مرة أخرى. النرجسيون لا يقدمون على الانتحار، لكنهم يتحدثون عن لينالوا الشفقة والاهتمام.

تكتب أغاتا كريستي في روايتها "مرآة رجلٍ ميت" قائلةً ((كيف يمكن لنرجسي يظنّ نفسه إلهاً، إنساناً مهماً، على أنه مركز الكون والعالم، أن ينتحر؟... فمن المرجح أكثر أن يدمّر إنساناً آخر - نملة أو حشرة ضئيلة تجرأت وتسلقت رجل إنسان لتزعجه... قد يعتبر مثل هذا العمل ضرورياً - مقدّساً! لكن مدمراً للذات؟ مدمراً لذاته النرجسية؟))[163].

---

162 http://www.mental-health-matters.com/articles/article.php?artID=92

163 Dead Man s Mirror by Agatha Christie - in "Hercule Poirot The Complete Short Stories" - Great Britain, HarperCollins Publishers, 1999.

وباختلاف المرضى الذين يعانون باضطراب الشخصية ثنائي القطب الذين يحتاجون لمعالجة دوائية للتخلص من أعراض اكتئابهم، فكل ما يحتاجه النرجسي هو "جرعة من المصدر النرجسي ليخرج من أعماق البؤس ويرتقي لأعالي النشوة الجنونية والسرور الهوسي)) على حسب تعبير فاكنين[164].

[164] http://samvak.tripod.com/journal71.html

(١٦)

صرع الفص الصدغي Temporal Lobe Epilepsy

أول من شكّ أنّ محمد كان يعاني من الصرع هي حليمة [السعدية]، أو زوجها، عندما كان محمد يبلغ من العمر خمس سنين. وكان ثيوفان (752-817)[165] المؤرخ البيزنطي هو أول من سجّل حالات محمد الصرعية ونوّه إليها. اليوم، بات بالإمكان تأكيد هذه المزاعم.

صَرَع الفص الصدغي، اختصاراً TLE، تمّ تحديده في عام 1985 من قبل الجمعية الدولية ضدّ الصرع ILAE بوصفه حالة من النوبات المتكرّرة وغير المبرّرة تتولّد من الفص الصدغي الأوسط أو الجانبي. النوبات الناجمة عن صرع الفص الصدغي تتضمّن نوبات جزئية بسيطة وبدون فقدان للوعي (أو حتى من دون اشتمام لروائح معينة)، ونوبات جزئية مركبّة (أي مترافقة مع فقدان للوعي). يفقد المرء وعيه خلال النوبة الصرعية الجزئية المركّبة لأنّ النوبة تمتدّ وتنتشر لتشتم لكلا الفصين الصدغيين، وهذا بدوره يسبب أضراراً بالذكريات وفقداناً للذاكرة[166].

محمد كان يعاني من نوبات من كلا النوعين. في بعض الأحيان كان يسقط على الأرض ويفقد الرعي وفي أحيان أخرى لم يكن كذلك. يروي لنا الرواة في أحد الأحاديث أنه في أحد الأيام وأثناء بناء الكعبة، وقبل أن يتلقى محمد رسالته للنبوية، سقط على الأرض مغشياً عليه وعيناه شاخصان إلى السماء، في الوقت الذي كان يفقد فيه حواسه ووعيه[167]. وهذا شبيه تماماً بما يحدث في حالات النوبات الصرعية.

يقول الخبراء في موقع الطب emedicine.com أنّ ((90٪ من المرضى الذين يعانون من تظاهرات الشذوذات الصرعية الصدغية على مقياس EEG لديهم تاريخ من نوبات الصرع))[168]. نحن نعلم أنّ محمد كان يعاني من نوبات منذ طفولته. فقد رأى رجلين يرتديان ثوباً أبيض يفتحان صدره ويغسلان قلبه بالثلج الأبيض. يصف لنا عالم الأعصاب الأمريكي والرائد في جراحة الدما غ والأعصاب، هارفي كوشينغ، حالة صبي يعاني من ورم دبقي كيسي في الفص الصدغي الأيمن تنتج عنه صور حية ثلاثية الأبعاد لرجل يرتدي الأبيض[169]. وكان عالم الأعصاب الإيرلندي-الأمريكي الشهير روبرت فوستر كينيدي (1884-1952) من أوائل الذين حدّدوا وجود هلوسات حقيقية حية ذات طبيعة سمعية-مرئية، متركّزة خارج الجسد ذات منشأ فصي صدغي[170].
محمد يتحدّث عن طفولته، فيقول: ((لما بنيت الكعبة ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وعباس ينقلان حجارة. فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على عاتقك، من الحجارة. ففعل. فخر إلى الأرض. وطمحت عيناه إلى السماء. ثم قام فقال "إزاري، إزاري" فشد عليه إزاره))[171].

أليس من المثير للاهتمام أنّ أصدقاء محمد الخياليين كانوا يتسمون بالعنف والإساءة كما كان هو تماماً؟

---

165 Theophanes, 1007, Chronographia, vol. 1, p334 189

166 http://www.emedicine.com/NEURO/topic365.htm

167 صحيح البخاري، 652

168 http://www.emedicine.com/NEURO/topic365.htm

169 Cushing: Brain 1921-1922 xliv p341

170 Kennedy: Arch Int Med 1911 viii p317.

171 سيرة رسول الله، ابن إسحاق، ص77

*** أعراض نوبات صرع الفص الصدغي**

النوبات المتولّدة من الفص الصدغي قد تكون مسبوقة بالإحساس برائحة عطرية معينة أو أعراض تحذيرية، مثل الأحاسيس الغريبة وغير الطبيعية، الإحساس الشرسوفي الصرفي (وهو شعور غريب في المعدة)، هلوسات أو أوهام (رؤى، روائح، طعوم، أو أوهام حسية أخرى)، حالات الديجا فو أو الحالات التي يشعر فيها الإنسان أنه قد مرّ بموقف معين أو مكان محدد لكنه لم يسبق له أن عرفه، تذكّر مشاعر أو ذكريات قديمة، أو شعور مفاجئ طاغٍ لا يتعلق أبداً بالموقف الحالي. جميع هذه الأعراض كانت موجودة خلال نوبات محمد.

التجربة الصرعية قد تكون جزئية، حيث يظلّ الإنسان واعياً خلالها، أو جزئية مركبة، وقد تؤدي إلى فقدان الوعي خلال النوبة. هناك أعراض أخرى تتضمن حركات غير طبيعية للرأس وانقلاب في العينين. هذا النمط من النوبات قد حدث لمحمد أثناء حادثة بناء الكعبة ونقله للأحجار مع عمه.

الحركات التكرارية والانقباضات الإيقاعية للعضلات التي تؤثر على جهة واحدة من الجسم، يد واحدة، رجل، أو جهة من الوجه، أو أي منطقة أخرى معزولة هي أيضاً علامات على صرع الفص الصدغي. الأعراض الأخرى تتضمّن، الإحساس بألم أو انزعاج في المعدة، الغثيان، التعرق، تورّد الوجه، تسارع معدل ضربات القلب، وتغيّرات في الرؤية، الحديث، التفكير، الوعي، والشخصية. طبعاً الأعراض الحسية (مرئية، سمعية، حسية، إلى آخره.) جميعها أعراض رئيسية[172].

الدكتور موغينز دام،وهو طبيب وعالم دانماركي متخصص بالصرع ومؤلف للعديد من الكتب حول الموضوع، يعرّف النوبات الجزئية البسيطة على أنها ((نوبات جزئية بسيطة تترافق مع أعراض عقلية، يمكن تذكّرها لاحقاً، وكانت تعرف منذ أقدم العصور باسم "الهالة arura". وغالباً ما تتبعها نوبات من التشنّج والحركات المضطربة والعنيفة. وكثيراً ما تكون أشبه بالمنام أو الحلم... فالمريض يشعر بأنه سيفقد عقله ويجن))[173] ومحمد بدوره كان يظن أنه سيجن أو يصبح مجنوناً. لكنّ خديجة هي التي أقنعته عكس ذلك.

يكتب الدكتور دام قائلاً: ((لطالما كان هناك جدال طويل حول ما إذا كان الأشخاص الذين يعانون من الصرع يمتلكون أية سمات أو خصائص شخصية محددة، تجعلهم مختلفين أو متميزين عن الآخرين. وقد أشير إلى أنّ الذين يعانون من صرع الفص الصدغي بالتحديد هم أشخاص أقل استقراراً من الناحية العاطفية من الآخرين،وربما لديهم ميل نحو الاكتئاب. وقد قيل أنّ بعض الناس قد يكونون أنانيون، وقد يكونون حساسون لدرجة الرهاب والبارانويا، ويأخذون كل حادثة من قبيل الصدفة على أنها علامة شخصية لهم. لقد تمّ وصفهم بأنهم يمنعون التفكير في العديد من الأمور، ومهتمون بشكل خاص بالأمور والقضايا الدينية، الصوفية، الفلسفية، والأخلاقية))[174].

ويشرح لنا بأنّ الأشخاص الذين يعانون من صرع الفص الصدغي TLE أكثر ميلاً للاكتئاب، وأن تنتابهم أفكار انتحارية وهلوسات. قد تنتاب الشخص المريض مشاعر توحي له بأنه مضطهد أو يجري اضطهاده وممارسة التعسف والظلم ضده. فاتصاله العاطفي مع الآخرين، يكون في أفضل حالاته فقط في حالات الشيزوفرينيا

---

172 http://www.nlm.nih.gov/medlineplus/ency/article/001399.htm

173 http://www.epilepsy.dk/Handbook/Mental-complications-uk.asp

174 المصدر السابق

الحقيقية. وعلى خلاف الشيزوفرينيا، فصرع الفص الصدغي غالباً ما ما يزول من تلقاء نفسه. ولابد أنّ ذلك ما حدث لمحمد خلال سنوات لاحقة في حياته حيث لم تحدث له سوى بضعة نوبات. بأية حال، ذلك لم يمنعه من استنزال آيات قرآنية كلّما تطلّب الموقف ذلك.

هناك تغيّر في النبرة، اللغة وبنية الجمل بين الآيات المكية المبكرة والآيات المدنية المتأخرة. فالسور المكتوبة خلال المراحل الأولى من سيرة محمد النبوية مصاغة بلغة شعرية بينة. فهي تميل أغلب الأحيان إلى أسلوب السجع، كما أنها قصيرة ومباشرة. وتتضمّن وصايا للتقوى والإحسان، لإطعام الفقراء والمساكين واليتامى وعتق العبيد، وللبصر، للخير والتسامح بالإضافة إلى العديد من التحذيرات والوعيد بالنار لأولئك الذين لن يلتزموا بهذه الوصايا.

وسورة الشمس 91 هي أفضل مثال عن هذه الفترة. فهي عبارة عن حكاية أو أسطورة فلكلورية كانت معروفة جيداً ومنتشرة بين العرب، مضمونها أنّ الله قد أرسل ناقة لتحذّر قوم ثمود، لكنهم بضلالهم قاموا بذبح هذه الناقة النبية:
{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)}

سورة الفلق 113 هي مثال آخر على هذه الفترة:
{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم (*) قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)}
عندما كان ما يزال في مكة، كان طموح محمد محدوداً بتلك البلدة وحدها وما يحيط بها. فقد كتب قائلاً: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا}[175].
أمّ القرى، هي مكة. وفي آيات أخرى[176] يقول أنه جاء فقط لأولئك القوم الذين لم يلتقوا وحياً من الله من قبل. فحسب هذه الآيات، فإنّ اليهود والمسيحيين لم يكونوا هدفاً له. وبطبيعة الحال، ومع مرور الوقت كبر طموحه واتسع، وفي النهاية بدأ بمطالبة الجميع: أسلِم تسلم، اعتنق الإسلام أو الموت.

أمّا النبرة في الآيات المتأخرة فتصبح تشريعية. إنها لغة مشرّع يضع القوانين ويسنّ التشريعات لأتباعه ويأمرهم بغزو شعوب أخرى واحتلال أراضيها. يقول أ. إس. تريتّون ((تصبح الجمل أطول وثقيلة وركيكة لذا يجب على المستمع أن يصغي جيداً وإلا فاته اللحن واختلّ الوقع، لقد أصبحت اللغة مبتذلة ومنثورة مع ناظم للكلمات عند التوقف. الموضوع الأساسي والمحورية فيها هو القوانين والتشريعات، تعليقات على حوادث عامة، تصريحات حول السياسة، توبيخ وذم لأولئك الذين لم يوافقوا النبي، وبشكل خاص اليهود، وإشارات إلى شؤونه ومشاكله

---

[175] سورة الشورى: 7، ونفس الآية ترد في سورة الأنعام: 92 (وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا)

[176] {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة السجدة 3] و{لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}[سورة يس 6]

العائلية. هنا نلاحظ ضعف المخيلة ووضع عبارات منمّقة لإخفاء فقر الأفكار، إلا أننا رغم ذلك نلاحظ في بعض الأحيان انبثاق الحماس السابق وظهوره من حين لآخر))[177]
من المهم أيضاً التنويه إلى أنّ هلوسات محمد لم تكن محدودة أو مقتصرة على رؤيته للملاك جبريل. فقد زعم أيضاً أنه رأي الجن، بل وحتى الشيطان نفسه. ففي إحدى المناسبات، وعندما كان يصلي في المسجد، بدأ بتحريك يديه وكأنه يتصارع من شخص خيالي. ثم قال لاحقاً ((إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرددته خاسئا عفريت متمرد من إنس أو جان مثل زبنية جماعتها الزبانية))[178]

في العديد من الأحاديث يروي محمد لنا عن مقابلاته مع الجان. فقد زعم في إحدى الروايات بأنه قضى الليل في مدينتهم وهو يدعوهم إلى الإسلام. والقرآن بدوره يتضمّن 30 إشاره على الأقل إلى الجان.
من المهم جداً التنويه إلى أنّ محمد كان جاهلاً بالكتاب المقدس. فسليمان كان ملكاً، وليس نبياً، ولم يقل أبداً مثل هذه الصلاة أو هذا الدعاء أو القول الذي قاله عنه محمد. طبعاً هو طلب من الله أن يمدّه بالحكمة بدلاً من الثروة. أمّا محمد هنا يكشف عن توقه الشخصي للمُلك والسلطة.

* أعراض أخرى لصرع الفص الصدغي

المرضى الذين يعانون من صرع الفص الصدغي تظهر عليهم خمس سمات أو خصائص عامة مشتركة (لكنها مختلفة ومتفاوتة من حيث للنوبات:
1) فرط الكتابة أو الهايبرغرافيا Hypergraphia وهي ظاهرة هوسية تتجلّى في كتابة وتدوين ملاحظات أو مذكّرات طويلة. وبالرغم من أنّ محمداً كان أمياً، فقد ألّف القرآن وطلب من أشخاص آخرين تدوينه له.
2) فرط التديّن أو Hyperreligiosity: المعتقدات الدينية ليست شديدة فقط، إنّما قد تكون مترافقة مع نظريات لاهوتية أو كونية أنيقة. وقد يعتقد المرضى أنهم يتمتّعون بعناية إلهية خاصة. من الواضح أنّ محمد كان لديه اهتمام بالفلسفة والصوفيات والسحر، وهذا ما أدى به لابتكار دين جديد.
3) التعلّق المفرط: فمن الأخبار والقصص التي نعرفها عن محمد وتعلقه بعمّه عندما كان صبياً صغيراً، ومن قصص أخرى أيضاً بإمكاننا الجزم أنّ محمداً كان متطلباً عاطفياً، وأنه كان يشعر بالإهانة والغضب عندما كان يُرفَض أو يُهجَر [لنتذكر حادثة المرأة التي استعاذت منه قبل أن يدخل بها، فطلّقها].
4) اهتمام متغيّر في الجنس: يشير اهتمام محمد الكبير بالنساء إلى أنّ ولعه بالجنس قد زاد وارتفع _كما سنرى لاحقاً_ بالرغم من تراجع قدرته مع تقدّمه في العمر.
5) العدوانية المفرطة aggressiveness: المشاعر والعواطف القوية غالباً ما تكون متقلّبة وغير مستقرة، لذا قد نرى المريض دافئاً وحميماً مرة، وفي مرة أخرى غاضباً وقد يتحوّل هذا الغضب بلا أي سبب إلى غضب عارم وسلوك عدواني. محمد كان يبدو ودوداً في بعض الأحيان بالنسبة لأصحابه بشكلٍ خاص، لكنه كان يظهر نفاذ صبر وضيق صدر وقسوة تجاه أولئك الذين كانوا يعارضونه. يقول البخاري أنه عندما كان النبي يغضب، كان ذلك يظهر في وجهه ((فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ))[179].

---

[177] تريتّون، الإسلام: معتقداً وممارسة A.S. Tritton, Islam: Belief and Practice 1951, p. 1

[178] صحيح البخاري .. كتاب أحاديث الأنبياء .. باب قول الله تعالى ووهبنا لداود سليمان نعم العبد

[179] البخاري، 763

(١٧)
محمد وليلة الإسراء والمعراج

هناك عدّة نسخ لرواية الإسراء والمعراج التي رواها محمد، رحلته الليلية المزعومة إلى السماء. وقد جمع ابن إسحاق هذه القصص والروايات مع بعضها عن أصحاب محمد، وبشكل خاص زوجته عائشة. فحسب الحديث الذي رواه محمد يقول فيه: ((بينا أنا نائم في الحِجْر، إذ جاءني جبريل، فهمزني بقدمه، فجلست فلم أر شيئا، فعدت الى مضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست ولم أر شيئا، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه، فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج بي إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته))[180].

ثم يتابع الراوي قصته: ((فمضى رسول صلعم، ومضى جبريل عليه السلام معه، حتى انتهى به الى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فامَّهم رسول الله صلعم فصلى بهم ، ثم أُتي باناءين، في احدهما خمر، وفي الآخر لبن قال فاخذ رسول الله صلعم إناء اللبن، فشرب منه، وترك إناء الخمر قال فقال له جبريل هديت للفطرة، وهديت أمتك يا محمد، وحرمت عليكم الخمر ثم انصرف رسول الله صلعم إلى مكة، فلما اصبح غدا على قريش فاخبرهم الخبر فقال أكثر الناس هذا والله الإمْر البين، والله إن العير لتطرد، شهراً من مكة الى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة)) وقال ابن سعد ناقلاً عن ابن إسحاق: ((فارتد كثير ممن كان اسلم)). ثم قيل أنّ الآية القرآنية التالية قد نزلت كردّ عن المكذّبين.

وقد انحرف المؤرّخون الإسلاميون وواضعو السيرة كثيراً ليتمكّنوا من تأسيس القصة وإقامة أساس متماسك لها ليمنحوها بعض المصداقية. وقد أضاف ابن إسحاق من عنده حكاية أنّ الناس سألوا النبي أن يقدم لهم دليلاً يثبت حكايته فأجابهم بأنه مرّ بالقرب من قافلة فلان بن فلان، وكان يحدث كذا وكذا، وعبر وادي كذا وكذا، لنستمع ((فلما خرج رسول الله صلعم الى الناس اخبرهم ، فعجبوا وقالوا ما اية ذلك يا محمد؟ فانا لم نسمع بمثل هذا قط ؛ قال اية ذلك اني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فانفرهم حس الدابة ، فندَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وانا موجَّه الى الشام ثم اقبلت حتى اذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان ، فوجدت القوم نياما ، ولهم اناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ؛ واية ذلك ان عيرهم الآن يصوب من البيضاء ، ثنية التنعيم ، يقدمها جمل اورق ، عليه غرارتان ، احداهما سوداء ، والآخرى برقاء قالت فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم اولُ من الجمل كما وصف لهم ، وسالوهم عن الإناء ، فاخبروهم انهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه ، وانهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء وسالوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا صدق والله ، لقد أُنْفرنا في الوادي الذي ذكر ، وندّ لنا بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا اليه ، حتى اخذناه))

هذه الأحاديث والأخبار قد دوّنت بعد مرور مئة عام على وفاة محمد. وكان من المستحيل إثبات أصالة وصحة هذه المزاعم والادعاءات بعد مضي كل هذا الزمن. بأية حال، ما فات المسلمين على العموم هو أنه في الوقت الذي زعم فيه محمد أنه زار بيت المقدس، لم يكن هناك بيت مقدس بعد. فقد دمره الرومان قبل ستة قرون من زيارة محمد له على طهر البراق. فحتى عام 70 للميلاد، لم يوضع حجر على حجر. لقد بني معبد سليمان

---

[180] سيرة رسول الله، ابن إسحاق، ص182

حوالي القرن العاشر قبل الميلاد، حسب الكتاب المقدس. أمّا قبّة الصخرة فقد بنت على أنقاض معبد روماني كان لعبادة الإله جوبيتر عام 691 للميلاد. مسجد الأقصى فقد بني على قاعدة رومانية في القسم الجنوبي لجبل المعبد من قبل الأمويين عام 710 للميلاد. لذا من المضحك أنّ محمداً رأى قافلة قبيلة الفلانية خلال رحلته إلى القدس لكنه لم يرى أنّ المعبد، الذي يزعم هو نفسه أنّه صلى فيه، لم يكن موجوداً بعد.

حديث آخر جاء فيه أنه ولاختبار صدق محمد من كذبه، طلب منه أبو بكر أن يصف لهم مدينة القدس، وعندما فعل ذلك، قال أبو بكر: ((هذا صحيح، وأشهد أنك رسول الله)). لكن ليس من الواضح أنّ أبو بكر قد سبق وزار القدس. فالقدس لم تكن بالمدينة الهامة والحيوية بالنسبة للعرب ليزوروها. والأمر المفاجئ أكثر من غيره هو أنّ أبو بكر لم يتطرّق أو ينوّه لموضوع المعبد. هذه قصص وأخبار ملفّقة قام المسلمون بتلفيقها ليضفوا بعض المصداقية لأغرب وأعجب قصة مروية عن نبيهم.

هناك نسخة أخرى من هذه القصة وهي على الأرجح القصة الأكثر موثوقية لأنها مذكورة أيضاً في القرآن. في هذه القصة يقول محمد: ((لما فرغت مما كان في بيت المقدس ، أُتي بالمعراج ، ولم ار شيئا قط احسن منه ، وهو الذي يمد اليه ميتكم عينيه اذا حُضر ، فاصعدني صاحبي فيه ، حتى انتهى بي الى باب من ابواب السماء ، يقال له باب الحفظة ، عليه ملك من الملائكة ، يقال له اسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر الف ملك ، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر الف ملك - قال يقول رسول الله صلعم حين حدث بهذا الحديث وما يعلم جنود ربك الا هو - فلما دُخل بي ، قال من هذا يا جبريل ؟ قال هذا محمد قال اوقد بعث ؟ قال نعم قال فدعا لي بخير... تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ، فلم يلقني ملك الا ضاحكا مستبشرا ، يقول خيرا ويدعو به ، حتى لقيني ملك من الملائكة ، فقال مثل ما قالوا ، ودعا بمثل ما دعوا به ، الا انه لم يضحك ، ولم ار منه من البشر مثل ما رايت من غيره ، فقلت لجبريل يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك الي ، ولم ار منه من البشر مثل الذي رايت منهم ؟ قال فقال لي جبريل اما انه لو ضحك الى احد كان قبلك ، او كان ضاحكا الى احد بعدك ، لضحك اليك ، ولكنه لا يضحك ، هذا مالك صاحب النار.
لما دخلت السماء الدنيا ، رايت بها رجلا جالسا تُعرض عليه ارواح بني ادم ، فيقول لبعضها اذا عُرضت عليه خيرا ويُسّر به ، ويقول روح طيبة خرجت من جسد طيب ؛ ويقول لبعضها اذا عُرضت عليه إف ، ويعبس بوجهه ويقول رو خبيثة خرجت من جسد خبيث. قلت من هذا جبريل؟ قال هذا ابوك ادم ، تعرض عليه ارواح ذريته ، فاذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها وقال روح طيبة خرجت من جسد طيب واذا مرت به روح الكافر منهم افَّف منها وكرهها ، وساءه ذلك ، وقال روح خبيثة خرجت من جسد خبيث صفة اكلة اموال اليتامى ظلم.ا
قال ثم رايت رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل ، في ايديهم قطع من نار كالأفهار(حجر قدر قبضة اليد) ، يقذفونها في افواههم، فتخرج من ادبارهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء اكلة امول اليتامى ظلما صفة اكلة الربا[181].
قال ثم رايت رجالا لهم بطون لم ار مثلها قط بسبيل آل فرعون ، يمرون عليهم كالإبل المهيومة (الإبل العطشى) حين يُعرضون على النار ، يطئونهم لا يقدرون على ان يتحولوا من مكانهم ذلك قال قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء اكلة الربا[182].

---

[181] لاحقاً، حين يشتدّ عود محمد وتقوى شوكته، ويحصل على السلطة، فإنه بدوره سيمارس نفس الشيء، جاعلاً الأطفال يتامى بقتل آبائهم وسبي أمهاتهم وسلب ممتلكاتهم.

[182] الإشارة هنا إلى الآية رقم 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ? وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}

صفة الزناة من بني ادم : قال ثم رايت رجالا بين ايديهم لحم ثمين طيب ، الى جنبه لحم غث منتن ، ياكلون من الغث المنتن ، ويتركون السمين الطيب قال قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يتركون ما احل الله لهم من النساء ، ويذهبون الى ما حرم الله عليهم منهن من نسبت ابنا لزوجها من غيره.
قال ثم رايت نساء معلقات بثديهنّ ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء اللاتي ادخلن على الرجال من ليس من اولادهم[183].
ثم اصعدني الى السماء الثانية ، فاذا فيها ابنا الخالة عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، قال ثم اصعدني الى السماء الثالثة ، فاذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ؛ قال قلت من هذا يا جبريل ؟ قال هذا اخوك يوسف ابن يعقوب قال ثم اصعدني الى السماء الرابعة ، فاذا فيها رجل فسالته من هو ؟ قال هذا ادريس - قال يقول رسول الله صلعم ورفعناه مكانا عليا - قال ثم اصعدني الى السماء الخامسة فاذا فيها كهل ابيض الراس واللحية ، عظيم العثنون ، لم ار كهلا اجمل منه ؛ قالت قلت من هذا يا جبريل ؟ قال هذا المحبَّب في قومه هارون بن عمران قال ثم اصعدني الى السماء السادسة ، فاذا فيها رجل ادم طويل اقنى ، كانه من رجال شنوءة ؛ فقلت له من هذا يا جبريل ؟ قال هذا اخوك موسى بن عمران ثم اصعدني الى السماء السابعة ، فاذا فيها كهل جالس على كرسي الى باب البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون الف ملك ، لا يرجعون فيه الى يوم القيامة لم ار رجلا اشبه بصاحبكم ، ولا صاحبكم اشبه به منه ؛ قال قلت من هذا يا جبريل ؟ قال هذا ابوك ابراهيم قال ثم دخل بي الجنة ، فرايت فيها جارية لعساء، فسالتها لمن انت ؟ وقد اعجبتني حين رايتها ؛ فقالت لزيد بن حارثة ، فبشَّر بها رسول الله صلعم زيد بن حارثة))[184].

جاء في أحد الأحاديث أنّ جبريل أخذ محمد معه إلى كل سماء وطلب الإذن بدخولها، وكان على جبريل إعلام حراس كل سماء من الملائكة عن هوية الشخص الذي معه، وما إذا كان مجرّد ضيف أو أنه سيستلم مهمّة أو مرسل، وكانوا يجيبون بأنه خير أخ وخير صديق وبالتوفيق! ويسمحان لهما بالمرور حتى وصلا إلى السماء السابعة وهناك قابل محمد الله. ففرض الله على أتباعه خمسون صلاةً في اليوم. وخلال عودته قابل موسى، وهذا ما حدث بينهما: ((ثم هبط حتى بلغ موسى، فاحتسبه موسى فقال يا محمد، ماذا عهد إليك ربك ؟ قال عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة) قال إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي صلعم إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا (فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي صلعم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال (يا رب إن أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنه، فقال الجبار تبارك وتعالى يا محمد قال (لبيك وسعديك)، قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال كيف فعلت ؟ فقال (خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها)، قال موسى قد و الله راودت بني إسرائيل

[183] أعتقد أنه تخويف وتهديد لمن أبحن رضاعة الكبير

[184] بعد ذلك بعدّة سنوات، وفي المدينة، سيقع محمد في غرام زوجة ابنه بالتبني زيد نفسه ويعلن عن غرامه وحبه لها، أمّا زيد المقورَن فسيبدي رغبته في تطليقخا ليتسنى لمحمد الزواج بها.

على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله صلعم (يا موسى قد والله استحييت من ربي عزَّ وجلَّ مما اختلف إليه))[185]

هناك الكثير من المسلمين الذين يقولون أنّ هذه الرحلة الملحمية لم تحدث فعلياً وبشكل جسدي، بل كانت تجربة روحية. والحال أنّ مزاعم محمد برؤيته قوافل بنو كذا وكذا أثناء طريقه وكافة التفاصيل عن إخافته للجمل وشربه الماء من وعاء عائلة معينة جميع هذه التفاصيل تنفي مقولة أنّ الرجلة كانت روحية. وأكبر دليل على أنّ الرحلة المزعومة كانت بالجسد وليس بالروح موجود في القرآن، الذي يقول أنّ الإسراء قد جرى لاختبار إيمان المؤمنين. الناس مستعدون للتسليم بأي خرافة سخيفة طالما أنها تندرج تحت فئة "روحية"، لكن عندما يتعلّق الأمر بالعالم المادي وبالجسد، فإنهم غالباً ما يميلون إلى أن يكونوا أكثر تشككاً وريبية.

* هل كان محمد يقول الحقيقة (أحياناً)

يرى الكاتب الوجودي الروسي فيودور دستويفسكي أنّ محمد كان يقول الحقيقة. فقد اعتقد أنّ تجربة محمد كان فعلية وحقيقية، بالنسبة له على الأقل. فدستويفسكي نفسه كان يعاني من صرع الفص الصدغي. فقد كشف، من خلال إحدى شخصياته، أنه عندما كانت تأتيه نوبات صرع كان يشعر بأنّ بوّابات السماء تفتح له، وكان يرى صفوفاً من الملائكة محتشدين ينفخون في أبواق ذهبية. ثم تفتح بوابة ذهبية عظيمة أمامه فيرى سلّماً ذهبياً يؤدي إلى عرش الله مباشرةً[186].

في مقال بعنوان "الدين والدماغ" منشور في النيوزويك بتاريخ 7مايو 2001، تفسّر لنا عالمة الأعصاب الكندية شارون بيغلي هذه الظاهرة على الشكل التالي: ((عندما تثير صورة الصليب، أو التوراة المتوّج بالفضة، إحساساً بالروع والخشوع الديني، فهذا مردّه إلى منطقة الارتباط البصري في الدماغ، التي تفسّر ما تراه العين وتربط الصور بالمشاعر والعواطف والذكريات، وقد تعلّمت هذه المنطقة أن تربط بين هذه الصور وتلك المشاعر. والمناظر والرؤى التي تظهر خلال الصلاة أو الطقس الديني أيضاً تتولّد في تلك المنطقة، والتحريض الكهربائي للفص الصدغي (والذي يعشّش في المنطقة الممتدة على جانبي الرأس ويحتوي الدارات العصبية المسؤولة عن اللغة، التفكير المفاهيمي والترابطات والمهارات) قد يولّد تلك الرؤى.

صرع الفص الصدغي بدوره ـ تدفقات غير طبيعية من النشاط الكهربائي في خذه المناطق ـ يمضي بهذه الحالات إلى أقصى حدودها الممكنة. وبالرغم من أنّ هناك بعض الدراسات التي ألقت ظلالاً من الشك على الرابطة ما بين صرع الفص الصدغي والتدين، إلا أنّ أغلب الدراسات قد وجدت أنّ هذه الحالة تولّد أصوات ومشاعر ورؤى حية دينية من النمط الجان آركي.

مع أنّ صرع الفص الصدغي حالة نادرة نسبياً، إلا أنّ الباحثون يشتبهون بأنّ اندفاعات مركّزة من النشاط الكهربائي التي تسمى "الاندفاعات الفصية-الصدغية المرحلية أو العابرة" قد تولّد تجارب دينية أو صوفية. ولوضع هذه الفكرة موضع الاختبار، يضع مايكل بيرسينغر من جامعة لورينتيان بكندا خوذة موصولة بأقطاب تولّد شحنات كهرومغناطيسية على رأس متطوّع. الخوذة تولّد حقلاً مغناطيسياً ، لا يتجاوز في قوته أو شدّته شدة الحقل الذي تولّده شاشات الكومبيوتر. هذا الحقل المغناطيسي يولّد دفعات من النشاط الكهربائي في

---

[185] صحيح البخاري، الإسراء، 608

[186] http://www.emedicine.com/neuro/topic658.htm

الفصين الصدغيين، وقد وجد بيرسينغر أنّ هذه العملية تولّد أحاسيس ومشاعر يصفها المتطوّعون على أنها تجارب ما ورائية أو صوفية أو روحية: تجارب الخروج من الجسد، ومشاعر بالحضور القدسي أو الإلهي. وهو يرى أنّ التجارب الدينية وليدة عواصف كهربية مصغّرة-مكروية تحدث في أحد الفصين الصدغيين أو كلاهما، وأنّ هذه العواصف قد تتولّد نتيجة القلق، الأزمات الشخصية، نقص الأكسجة في الدماغ، انخفاض معدل السكر بالدم، والإرهاق البسيط _ وقد أعقب قائلاً أنّ بعض الأشخاص قد "عثروا على الله" خلال هذه التجربة))[187].

[187] Newsweek May 7, 2001, U.S. Edition-;- Section: SCIENCE AND TECHNOLOGY-;- Religion And The Brain By Sharon Begley With Anne Underwood

(١٨)
أصل ومصدر تجارب محمد الدينية

هل من الممكن دغدغة الفص الصدغي بطريقة عمدية وتوليد تجارب صوفية ودينية كالإحساس بحضور إلهي أو قدسي ما، سماع أصوات، رؤية أضواء، أو حتى أشباح؟

مايكل بيرسينغر، عالم الأعصاب الكندي من جامعة لورينتيان يعتقد ذلك. فهو قد أثبت أنّ المشاعر التي توصف على أنها "تجارب دينية أو صوفية" في بالكاد مجرّد أعراض ثانوية لفرط نشاطات بيوكيميائية في أدمغتنا. بمعنى آخر: عندما تتمّ استثارة نصف الكرة الأيمن من دماغنا _موضع المشاعر والأحاسيس_ في المنطقة القشرية يفترض أنها تتحكّم بفكرة الأنا أو الذات، ثمّ نصف الكرة الأيسر _مركز اللغة_ يعتقد أنه يولّد شعوراً بحضور كيان غير موجود، فإنّ العقل يولّد شعوراً "بحضور محسوس"[188].

وقد تمّ التطرّق لعمل بيرسينغز بشكل تفصيلي أكثر في مقالة بعنوان "التعويذة" لكين هولينغز، حيث كتب يقول: ((يقول بيرسينغر... أنّ التجارب الدينية تتولّد داخل الدماغ. وهناك دراسات وأبحاث حديثة تشير إلى أنّ شعورنا وإحساننا بالذات يتولّد داخل الفص الصدغي الأيسر، المتمركز في نصف الكرة المسؤول عن العمليات المنطقية المضبوطة والتفاصيل والأحكام في أدمغتنا، والتي تساعدنا على تمييز الحدود بين الوعي الفردي والعالم الخارجي. قم بإطفاء ذلك الفص وستشعر أنك متّحد مع الكون _وهذا شكل أولي وبدائي من التجارب الدينية. حفّز الفص الصدغي الأيمن، المنطقة المسؤولة عن الإبداع والجانب العاطفي في أدمغتنا، وسينشط الإحساس بالأنا والذات، والذي غالباً ما نشعر به ككيان منفصل ومستقل))[189].

صمّم بيرسينغر خوذة درّاج ذات أقطاب تصدر حقول كهرومغناطيسية طفيفة حول رأس المتطوّع. وقد جرى تصميم التجربة ليجلس المتطوّعون في غرفة خالية معصوبي العينين _" غرفة الجنة والنار" كما تسمى من قبيل المازحة. وعن طريق تغيير شدّة الشحنات الكهربائية، 80؟ من الأشخاص الذين شاركوا في هذه التجربة شعروا "بوجود" كائن شبحي خيالي في الغرفة، يلمسهم في بعض الأحيان أو يقبض عليهم. بعضهم قال أنهم شمّوا رائحة الجنة أو لهيب النار. كانوا يسمعون أصواتاً، يرون أنفاقاً مظلمة، أضواء، ومرّوا بتجارب دينية عميقة.
يكتب إد كونروي عن تجارب مايكل بيرسينغر قائلاً:
((إنّ شخصيات الأشخاص الأسوياء الذين يتميّزون بنشاط طبيعي وحسن في منطقة الفص الصدغي... تظهر لديهم سمات إبداعية طبيعية، وقابلية طبيعية للإيحاء، ومقدرات طبيعية ذاكرية والمعالجة الحدسية للمعطيات. أغلبهم يمرّون بتجارب الخيال الواسع أو عوالمهم الذاتية الباطنية التي تحثّ وتشحذ قدراتهم التكيفية. الكثيرون منهم يميلون لاختبار نوبات بسيطة من تانشاط الفيزيائي أو العقلي التي تعقبها فترة من الاكتئاب المتوسط والخفيف. هؤلاء الأشخاص يمرّون بتجارب متكرّرة يشعرون خلالها بحضورٍ ما "كيان يشعرون بوجوده وأحياناً أخرى يرونه"، وهي معتقدات غريبة أكثر من كونها مفاهيم دينية تقليدية معتنقة))[190].

---

188 http://web.ionsys.com/~remedy/Persinger,%20Michael.htm

189 Ken Hollings http://www.channel4.com/science/microsites/S/science/body/exorcism.html

190 Michael Persinger in Report on Comm-union- by Ed Conroy http://www.futurepundit.com/archives/000721.html

وجد بيرسينغر أنّ السمات والخصائص والصفات التي تميّز هذه الصور والشخصيات الشبحية هي ذات أسماء مألوفة عند الذين يرونها. الأشخاص المتدينون يرون ويختبرون حضور شخصيات قدسية أو إلهية هي في الأساس نابعة من دياناتهم ومعتقداتهم: المسيحي يرى إيليا، مريم العذراء، يسوع، الروح القدس, والمسلم يرى محمد أو أي واحد من صحابته، إلخ. بعض الشخصيات تظهر وفق تفسيرات وتحليلات فرويدية: على سبيل المثال، قد يصف الشخص الكيان الذي رآه بالجَدّ.

وقد استخدمت هذه الطريقة لتوليد تجارب الاقتراب من الموت NDEs. يكتب هولينغز قائلاً: ((اكتشف عالم وجرّاح الأعصاب من جامعة مونتريال في عام 1933 وايلدر بينفيلد أنّه عندما قام بتحريض خلايا عصبية معينة كهربائياً في منطقة الفص الصدغي، كان المريض يعيد اختبار, "يعيش من جديد", تجارب ستبقة كان قد مرّ بها وبقناعة وتفصيل دقيق وكأنه يعيش الحالة وبشكل حسي ومدرك. جادل عالم الأعصاب من جامعة برينستون جوليان جاينز في منشوره المثير للجدل (The Origin of Consciousness in the Breakdown of the Bicameral Mind)/1976 أنّ الأحاسيس والمشاعر التي توصف عادةً بأنّها "تجارب دينية" ما هي إلا عوارض جانبية أو ثانوية لتفاعلات حادّة ومحمومة ما بين نصفي الكرة الدماغية الأيمن والأيسر. فأسلافنا القدماء كانوا يفتقرون إلى الشعور القوي بالهوية الفردية والمستقلّة لتفسير مثل هذه التغيّرات إلا بوصفها أصوات ورؤى من الآلهة))[191]

ماذا يحدث بالضبط في تلك اللحظة من الوعي الروحاني الشديد؟ يقول هولينغز: ((يتوقف النشاط في اللوزة المخية, وهي المسؤولة عن مراقبة المحيط من المخاطر والتهديدات المحتملة، وتسجيل حالات الخوف. الدارات في الفص الجداري، ذلك الجزء الذي يقودك ويوجّهك ضمن الوسط المحيط، تتوقف عن العمل، في حين أنّ الدارات في الفصين الصدغي والجبهي، التي تعيّن الوقت وتولّد مشاعر الوعي بالذات، تتوقف أيضاً عن عملها. وباستخدام بيانات تمّ جمعها من صور مقطعية لأدمغة رهبان بوذيين من التيبت في حالة تأمّل وراهبات فرانسيسكانيات أثناء صلاتهنّ، لا حظ الدكتور أندرو نيوبيرغ من جامعة بنسلفانيا أنّ مجموعة من العصبونات في الفص الجداري الأعلى, والمتموضعة في أعلى الدماغ وممتدّة إلى الخلف، قد توقفت عن العمل. وهذه المنطقة مسؤولة أيضاً عن معالجة المعلومات المتعلّقة بالتوجّه ضمن الوسط وتحديد الزمن))[192].

بيّن بيرسنيغر أنّ التجارب "الروحية" و"الماورائية أو الخارقة للطبيعة"ما هي إلا نتيجة نقص أو عجز في التواصل المناسب أو التعاون بين الفصين الصدغيين الأيمن والأيسر. فالإحساس بحضور ما في الغرفة، أو تجربة الخروج من الجسد، التشويه الغريب لأعضاء الجسم، بل وحتى المشاعر والأحاسيس "الدينية" كلها أساسها في الدماغ. ويطلق بيرسينغر على هذه التجارب اسم "عابرو السبيل في الفص الصدغي"، أو زيادات وخلل في أنماط العمل الكهربائي العصبوني في الفص الصدغي.

كيف تولّد هذه التجارب حالات دينية؟... يقول بيرسينغر: ((إنّ "شعورنا بالذات" متموضع في القشرة الدماغية الصدغية لنصف الكرة الأيسر. وعندما يعمل الدماغ بطريقة طبيعية سليمة فإنّ ذلك يتلاءم مع الأنظمة المطابقة في القشرة الدماغية-الصدغية لنصف الكرة الدماغية الأيمن. وعندما يحدث أي خلل في حالة التطابق والتوافق بين هذين النظامين، كحالات النوبات أو عابرات السبيل على حد تعبير الباحث، فإنّ نصف الكرة الدماغية الأيسر يفسّر هذا النشاط المختلّ وغير المتوافق على أنه "أنا آخر" أو"ذات أخرى"، أو بوصفه "وجود أو كيان

---

[191] Ken Hollings http://www.channel4.com/science/microsites/S/science/body/exorcism.html

[192] السابق

محسوس"، وهذا ما يحدث عندما يخبرنا الناس أنّهم شعروا "بوجود كيان" في الغرفة (الأمر الذي قد يفسّرونه هم على أنّه ملاك, أو شيطان، أو عفريت، أو غرباء، أو أشباح)، أو أنهم خرجوا من أجسادهم (كما في حالات الاقتراب من الموت)، أو حتى أنهم رأوا آلهة أو "الله". وعندما تشارك اللوزة المخية (وهي منطقة متوضّعة عميقاً في الدماغ مسؤولة عن العواطف والمشاعر) في أحداث عابرات السبيل، فإنّ العوامل العاطفية تحسّن التجربة وتزيد قوّتها، وعندما تكون تلك التجربة مرتبطة بسمات ومفاهيم دينية وروحية، فإنّها قد تكون عاملاً قوياً للمرور بتجارب دينية قوية))[193].

* الإثارة الدماغية تخلق أشخاصاً شبحيين خياليين

وجد علماء سويسريون بأنّ الإثارة الكهربائية المتعمّدة للدماغ قد تولّد إحساساً بوجود "شخص شبحي أو ضبابي" يحاكي ويقلّد حركات جسم الشخص الفعلي، وحسب تقرير مقتضب ورد في مجلة "الطبيعة Nature" وضمن مقال بعنوان "إثارة الدماغ تخلق أشخاصاً شبحيين" موجود في مجلة Physorg.com الإلكترونية، جاء فيه:

((يقول أولاف بلانك وزملاؤه من كلية لوزان الفدرالية للعلوم المتعددّة أنّ كتشافهم قد يساعد في تسليط الضوء على العمليات الدماغية التي لها علاقة في أعراض الشيزوفرينيا، والتي تعطي إحساساً بأنّ أفعال المرء الخاصّة به يقوم بها شخص آخر أو كيان آخر غيره.

وجد أطباء أثناء تقييمهم لامرأة لا تمتلك أي تاريخ ذهاني أو أمراض عقلية ومشاكل نفسية سابقة أنّ تحفيز وإثارة مناطق معينة من دماغها، وبالتحديد في نقطة الالتقاء ما بين الفصين الجداري والفصي اليساريين، قد دفعها للاعتقاد بأنّ هناك شخصاً ما يقف وراءها.

وقد صرّحت المريضة بأنّ ذلك الشخص الخيالي كان يحاكي ويقلّد وضعياتها الجسدية وحركات جسمها كما لو كانت هي، مع أنها لم تدرك ذلك الأثر كوهم أو خيال. عند نقطة معينة خلال الدراسة، طُلِبَ من المريضة الانحناء إلى الأمام وصفع ركبتيها: وقد أدّى ذلك إلى شعورها بأنّ تلك الشخصية الخيالية كانت تعانقها، الأمر الذي وصفته بأنّه تجربة غير سارّة.

قد يكون هذا الاكتشاف خطوة نحو الأمام لفهم التأثيرات النفسية كمشاعر البارانويا/الرهاب، أو الاضطهاد أو سيطرة الغرباء على الأجساد، على حسب تعبير علماء الأعصاب))[194].

أيمكن لهذه الاكتشافات أن تفسّر لنا رؤى محمد وما كان يسمعه أو يشعر به خلال تجاربه العقلية-الانتشائية؟ محمد نشأ ضمن ثقافة كانت تؤمن وتعتقد بوجود الجن والعفاريت والملائكة والشياطين, وهذه هي الكائنات التي تراءت لمحمد خلال هلوساته ونوباته. أمّا الخلاف حول ما إذا كان هناك إله واحد، كما كان يؤمن اليهود والمسيحيون والأحناف[195]، فقد كان عبارة عن خلاف جدلي دائر. أمّا محمد فقد اتّخذ لنفسه معتقداً توحيدياً أكثر "غرابة" وتطرّفاً، بدلاً عن المفاهيم الدينية التقليدية التي كان يعتنقها قومه. ومن المهم أيضاً عدم التقليل من شأن تأثير خديجة الذي مارسته على محمد في تفسير هلوساته ورؤاه وتجاربه. فقد كانت هي موحّدة بدورها.

---

[193] مايكل شيرمر، كيف نؤمن، How We Believe, 2000, Michael Shermer p.66 2000

[194] http://www.physorg.com/news77992285.html, published 17:31 EST, September 20, 2006, copyright 2006 by United Press International, accessed June 21, 2007

[195] كانت الفرقة الموحّدة المنتشره في شبه الجزيره العربية والتي كانت تنتمي إليها خديجة.

ما كان يشعر به محمد ويختبره ويمرّ به كان شيئاً حقيقياً، لكنّه كان عبارة عن حالة عقلية لا أكثر ولا أقل.
فعندما قصّ ما جرى له على خديجة، كل ما فكّرت فيه هو أنّ زوجها الحبيب ممسوسٌ إمّا من قبل الشياطين أو الملائكة. لذا عندما قال لها محمد ((لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا))[196]، وبما أنّها لم تكن قادرةً على تقبّل حقيقة أنّ زوجها قد جُنّ أو فقد عقله، لم يعد أمامها سوى خيار واحد يمكن التفكير فيه ولذلك قالت له أنّ الله قد اختاره للنبوّة. ولولا دعم خديجة وحبّها غير المشروط وتشجيعها الدائم له، لكان محمد قد بقي على اعتقاده وظنّه بأنّه كاهن أو مجنون، ولكان قد أدرك حالته وتقبّل واقعه كم يفعل جميع المصابين بالصرع.

[196] صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، 3043

(١٩)
الوحي الذي أوقع الجمل على ركبتيه

((وإن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يوحى إليه))[197].

كثيراً ما يبالغ المسلمون ويغالون وينسبون معجزات زائفة وخلّبية لمحمد. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لأتباع الطوائف والمذاهب الذين يميلون لإضفاء الكثير من المعجزات الخرافية على معلّميهم وزعمائهم ورؤساء طوائفهم. ورد في أحد الأحاديث أنّ في أحد الأيام وبينما كان على ظهر جمل نزل عليه الوحي، إلا أنّ ثقل ذلك الوحي ووقعه كان شديداً جداً لدرجة أنّ الجمل لم يتحمّله فخرّ على ركبه حتى استقرّ على الأرض.

إنّ ركوع الحيوان ونزوله على ركبه في الوقت الذي زعم فيه محمد أنّه تلقى وحياً من الله قد يكون له علاقة بما كان يختبره محمد ويمرّ به، وقد يكون دليلاً إضافياً إلى أنّه ما كان يمرّ به كان عبارة عن نوبة صرع.

تقول بوني بيفر، خبيرة سلوك الحيوان في كلية فيتيرناري ميديسن بجامعة تكساس A&M، أنّ ((الكلاب والقطط يعرف عنها أنّها تقوم بتحذير أصحابها قبل بداية النوبة. فمن الشائع عند الحيوانات أن تستشعر حلول النوبة عند أصحابها المرضى، حتى أنّه يمكن تدريب الكلاب على تحذير الإنسان قبل حدوث أي نوبة وشيكة))[198]

إنّ القدرة على التنبؤ بالنوبات الوشيكة والمحتملة ليست مقتصرة على الكلاب والقطط فحسب. فالظاهر أنّ الحيوانات تمتلك مستقبلات حسية لا نمتلكها نحن البشر أو قد نكون قد فقدناها منذ زمنٍ بعيد جداً. بإمكان الحيوانات استشعار الزلازل قبل وقوعها بساعات. أغلب الحيوانات _وخصوصاً المواشي والأحصنة_ بإمكانها استشعار العواصف والأعاصير الوشيكة قبل حدوثها.

في الرابع من يناير عام 2005 كتب مايان موت في مقال للناشيونال جيوغرافيك جاء فيه:
((قبل أن تضرب الأمواج العملاقة سواحل الهندي وسريلانكا بعشرة ايام، كان يبدو أنّ الحيوانات البرية والأليفة كانت على علم مسبق بما سيحدث لاحقاً وفرّت هاربةً غلى المناطق الآمنة. حسب روايات شهود عيان كانت الفيلة تصيح بصوتٍ عالٍ ثمّ انطلقت هاربةً نحو الأراضي المرتفعة، وكانت الكلاب ترفض الخروج من المنازل، أمّا طيور الفلامينكو فقد هجرت أعشاشها المنخفضة ومناطق تعشيشها كما أنّ الحيوانات في حديقة الحيوان هرعت إلى مأويها ورفضت الخروج منها. كما أنّ الاعتقاد بأنّ الحيوانات تمتلك حاسّة سادسة _وتعرف مسبقاً حدوث الزلازل الوشيكة_ كان موجوداً منذ قرون عديدة))[199]

الفكرة هنا هي أنّ الحيوانات تعرف مسبقاً وقوع الأحداث الوشيكة وتتنبأ بها، وخصوصاً نوبات الصرع الوشيكة عند أصحابها بطريقة يعجز عنها البشر. فليس من الغريب أن يتوتّر الحيوان ويتصرّف بطريقة عصبية عندما

---

197 صحيح البخاري، الدلائل للبيهقي، وفتح الباري.

198 http://www.tamu.edu/univrel/aggiedaily/news/stories/04/070104-3.html

199 ناشيونال جيوغرافيك: ((هل استشعرت الحيوانات قدوم التسونامي؟))
National Geographic: “Did Animals Sense Tsunami Was Coming?”
http://news.nationalgeographic.com/news/2005/01/0104_050104_tsunami_animals.html

يكون مالكه على وشك الوقوع في نوبة. نحن نعرف تماماً أنّه لا زوجات محمد ولا أصحابه كان يستشعرون أي شيء عندما كان ينزل "الوحي" على محمد.
وخلال إحدى هلاوسه أخبر محمد زوجته عائشة بأنّ ذلك كان جبريل، وهو يرسل إليها سلامه وتحياته. فردّت هي السلام وقالت له بأنّه يرى ما لا تراه هي ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة هذا جبريل يقرأ عليك السلام قالت قلت وعليه السلام ورحمة الله ترى ما لا نرى))[200]. لذلك إذا كان الجمل هو الوحيد الذي استشعر بما سيحدث لمحمد ولم يستشعر غيره من البشر ذلك، فهذا إن دلّ على شيء ـ وذلك باستبعادنا لكافة التفاسير والمزاعم الماورائية والشخصية ـ فإنّه يدلّ على أنّ محمداً كان على وشك اختبار نوبة صرع، وهذا ما حدث فعلاً.

[200] صحيح البخاري، 5780

(٢٠)

حالة فيل ديك

إنّ دراسة تاريخ الحالات لأشخاص يعانون من مرض الصرع تعطينا صورة أوضح عن الذي كان يجري لمحمد. إذ أنّ التشابهات في أغلب الأحيان تكون صادمة.

كاتب الخيال العلمي الشهير فيليب كيندريد ديك (1928-1982) يكلّم تشارلز بلات عن رؤاه الغريبة إذ يقول: ((لقد اختبرت غزواً لعقلي من قبل عقل آخر متعقّل ومتعالي، وكأنني كنت مجنوناً طوال حياتي ثم ذهب عني الجنون الآن فجأةً))[201]

جميع أعمال ديك وكتاباته تبدأ من افتراض أساسي وهو أنّه لا يوجد هناك عالم واحد واقعي وموضوعي. يصف تشارلز بلات روايات وقصص ديك بالقول ((كل شيء فيها موضوع إدراك. فالأرض قابلة للتحرّك والاهتزاز تحت قدميك.قد يجد البطل نفسه يعيش داخل حلم رجلٍ آخر، أو قد يدخل في حالة معينة ناتجة عن تعاطي عقار معين تكون معقولةً أكثر من العالم الحقيقي والفعلي، أو قد يعبر إلى عالمٍ آخر مختلف تماماً))[202]

على غرار محمد، كان ديك مصاباً بجنون الارتياب، كان طفولياً من الناحية العاطفية، نرجسي، وكانت تنتابه أفكار وخواطر انتحارية، كما أنّه كان كارهاً لوالديه مبغضاً لهما. كان يظنّ أنّ هناك مؤامرات وحيل تحبك حوله وأنّه مخترق من قبل جهاز الاستخبارات السوفياتية KGB أو وكالة التحقيق الفدرالية FBI، وأنّهم كانوا يترصّدونه بشكل دائم ويسجّلون له كلامه. كما أنّنا نستشعر نفس النمط من الارتياب في كتابات محمد الذي تحدّث دوماً عن الكفّار وكيف أنّهم كانوا يتآمرون عليه ويخطّطون لإلحاق الأذى به، ويعارضون دينه ويضطهدونه هو وأتباعه. فاليس VALIS، أول رواية من روايات ديك السيرية الثلاث[203]، هي عبارة عن بحث غبي عن الله، الذي يتبيّن أنّه مجرّد فيروس، نكتة، وهولوغرام عقلي يتمّ بثّه عن طريق قمر صناعي يدور في مدار الأرض.

يُدفَع بطل الرواية في مسعى وبحث لاهوتي عندما يتلقّى رسالة في وميض ليزري وردي اللون ويتبيّن أنّه اتصال مباشر مع الله. يبحث ديك في عمله هذا مقابلاته المفترضة مع كيان قدسي إلهي مفترض.

كلمة فاليس VALIS هي اختصار لعبارة Vast Active Living Intelligence System نظام استخبارات حيوي فعّال واسع النطاق، وقد جادل بأنّ فاليس هو "مولّد للواقع" ووسائل للاتصال مع الحضارات الذكية.

يكتب لاورنس سوتين في كتابه ((استعمارات قدسية: حياة فيليب ديك)) عن واحدة من تجارب ديك الغريبة والتي تشبه على نحو غريب التجارب التي كان يمرّ بها محمد.

((مساء الاثنين اتصل بي وقال أنّه في الليلة الماضية، كان يدخّن بعض الماريجوانا التي تركها له أحد زوّاره، وشعر بنفسه يدخل في تلك الحالة المألوفة الآن حيث يرى فيها رؤى (ليست من ذلك النوع المرتبط بالمخدّرات)، ثم

---

[201] Platt, Charles. (1980). Dream Makers: The Uncommon People Who Write Science Fiction. Berkley Publishing. ISBN 0-425-04668-0

[202] نفس المصدر

[203] أمّا الروايتان الباقيتان فهمتا ((الاستعمار المقدّس Divine Invasion)) و ((تقمّص تيموثي آرتشر Transmigration of Timothy Archer))

قال: "أريد أن أرى الله. دعني أراك." ثمّ قال، وعلى الفور صُعِقَ بأكثر المناظر رعباً على الإطلاق، فقد رأى تابوت العهد، وسمع صوتاً يقول له: "لن تصل إليّ عن طريق البحث المنطقي أو الإيمان أو أي شيء آخر، لذا عليّ أن أقنعك بهذه الطريقة". فأسدلت أستار تابوت العهد، ثمّ ظهر أمامه خواء عميق، ورأى فيه مثلثاً وعين في منتصفه، تلك العين كانت تحدّق فيه بشكلٍ مباشر. تابع فيل قائلاً أنّه خرّ على ركبتيه ويديه، وهو مرعوب بطريقة لم يعرفها في حياته من قبل، وكان يعاني من هذه الرؤيا السعيدة من الساعة التاسعة مساء الأحد وحتى الساعة الخامسة صباح يوم الاثنين. قال لي أنّه كان متأكّداً بأنّه يموت، ولو كان باستطاعته بلوغ الهاتف لكان قد اتصل بالمسعفين لإنقاذه. وقد قال له الصوت "لقد كنت تناقش نفسك غير صدّقٍ أي شيء آخر. سأدعك ترى، لكن هذا الشيء الذي ستراه ستعجز عن نسيانه أو فهمه أو تحريفه))[204].

ديك، الذي مات في سنٍ مبكرة في عمر 54، كان قد كتب ملايين الكلمات. يقتبس كاتب سيرته سوتين من إحدى كتابات ديك لتفسير حالاته وتجاربه الغريبة:
((تظاهر لي الله كخواء مطلق لا نهائي، لكنّه لم يكن الهاوية، بل كان خزينة الجنة، بسماء زرقاء وندف من الغيم الناصع البياض. لم يكن إلهاً غريباً من نوع ما، بل إله آبائي وأجدادي. كان إلهاً محباً وعطوفاً، وكان يتمتّع بشخصية رائعة. قال لي: "أنت تعاني قليلاً الآن خلال الحياة، لكنّ هذا قليل جداً مقارنةً المُتَع والجوائز الكبرى والنعمة التي تنتظرك. هل كنت تظنّ أنني وبألوهيتي وقدرتي سأسمح بمعاناتك نظراً لمكافآتك عندي؟" لقد وعّاني بالنعمة المباركة التي تنتظرني، ستكون مطلقة ولانهائية ورائعة. قال لي: "أنا المطلق واللانهائي. سأريك. فحيثما أحلّ، هناك المطلق، وحيثما هناك مطلق، أكون... إنّهم يحسبون مريضاً ذلك الذي يتركني ويخرجني من قلبه، فعندما يطيرون أكون أنا الأجنحة. أنا الشكّاك وأنا الشك))[205].

[204] Divine Invasion , A Life of Philip K. Dick by Lawrence Sutin, p.264

[205] السابق p.269

(٢١)
حالات صرع الفص الصدغي عبر التاريخ

من جهةٍ أخرى، التاريخ مليء بقادة وزعماء دينيين وروحيين كانوا يعانون من نفس الداء. يعتقد عالم النفس وليم جيمس (1842-1910) أنّ صوت الناموس الجديد الذي سمعه الرسول بولس خلال رحلته إلى دمشق ربّما كان ((إعصار صبي سيكولوجي أو مرض عصبي كان يعاني منه كالصرع)). كان بولس قد رأى أنواراً ساطعة وسمع صوتاً يخاطبه ويقول له: ((شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟))[206] ثم سقط على الأرض، وكان كل من حوله لا يبصرون شيئاً، وعندما نهض كان مفتوح العيني لكنه لا يبصر شيئاً، وفي النهاية اهتدى. تكلّم بولس عن رؤاه في المقطع التالي: ((7وَلِئَلاَّ أَرْتَفِعَ بِفَرْطِ الإِعْلاَنَاتِ، أُعْطِيتُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ، مَلاَكَ الشَّيْطَانِ لِيَلْطِمَنِي، لِئَلاَّ أَرْتَفِعَ. 8مِنْ جِهَةِ هذَا تَضَرَّعْتُ إِلَى الرَّبِّ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ أَنْ يُفَارِقَنِي. 9فَقَالَ لِي:«تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ»))[207].

حالة شهيرة أخرى تتعلّق براهبة من القرن السادس عشر تعرف باسم القديسة تيريزا Santa Teresa of Avila (1515-1582). فقد رأيت رؤى حية، ومرّت بحالات صداع شديدة وسماع أصوات قرع أجراس مصمّة للآذان، وكانت تعقب ذلك حالة من ((السلام، الراحة، الهدوء، والثمار الطيبة في الروح، و... شعور طاغٍ بعظمة الرب وجلاله))[208] ويقترح كتّاب سيرتها أنّها كانت تعاني من نوبات صَرَعِية[209].

يقول لابلانت أنّ الرسّامين والكتّاب أمثال فنسنت فان كوغ، غوستاف فلوبير، لويس كارول، مارسِل بروست، تينيسون ودستويفسكي، جميعهم كانوا نون من داء صرع الفص الصدغي. فالمصابون بهذا الداء غالباً ما يمرّون بحالات أو أنماط تغيّر في الشخصية، عادةً ما تتمثّل في الكتابة القهرية أو الرسم بالإضافة إلى التديّن المفرط.

حسب لابلانت، كان محمد يعاني من صرع الفص الصدغي أيضاً. وهناك حالات أكثر حداثة وأقرب إلى زماننا الحالي. جوزيف سميث مؤسس مذهب المورمون، وإيلين وايت مؤسّسة حركة عودة المسيح في اليوم السابع the Seventh Day Adventist Movement والتي عانت منذ سنّ التاسعة من إصابة دماغية غيّرت شخصيتها بشكلٍ كامل. كما أنّها قد بدأت برؤية رؤى دينية قوية.

هيلين شوكمان، عالمة النفس الملحدة من أصل يهودي، والتي زعمت أنها تلقّت رسالة من يسوع المسيح عن طريق "قراءة" ما أطلقت عليه اسم "منهج في المعجزات"[210] كانت على الأرجح تعاني من داء صرع الفص الصدغي. وهناك تقارير تقول أنّ شوكمان قضت العامين الأخيرين من حياتها في حالة اكتئاب متأزّم وبارانويا مستفحلة.

---

[206] أعمال الرسل 9

[207] 2 كورنثوس 12: 7-9

[208] تيريزا، قدّيسة آفيلا (1930)
Theresa, Saint of Avila (1930) Interior castle. London: Thomas Baker p. 171

[209] النسر والعطر: دراسة في متناقضين –القدّيسة تيريزا من آفيلا، القديسة ثيريزا من ليسيي.
Sackville-West 1943, The Eagle and the Dove : a Study in Contrasts - St Teresa of Avila, St Therese of Lisieux

[210] A Course in Miracles

سعيد علي محمد باب، مؤسّس الديانة البابية كان يعاني من مرض الصرع. والبيان البابي الفارسي يندرج تحت فئة "الأعمال الصرعية" الكلاسيكية.

* مشاهير آخرون مصابين بالصرع

يزعم كلُّ من هايدي هانسِن وليف بورك هانسِن بأنّ سورين كيركجارد قد كتب في مجلّته بأنّه كان يعاني من صرع الفص الصدغي واحتفظ بذلك كسرّ بقيّة حياته. وهما يقتبسان عنه قوله ((من بين جميع الآلام ربما ليس هناك أكثر إيلاماً من أن يصبح الشخص موضوعاً للشفقة، ولا شيء أكثر من ذلك مدعاةً للثورة ضدّ الله. الناس عادةً يعتبرون مثل هكذا أشخاص بأنّهم غبياء وسطحيون، لكن لن يكون من الصعب إثبات أنّ هذا هو بالضبط السر المخفي في حياة العديد من أعظم الشخصيات التاريخية وأكثرها تأثيراً))[211].
الفيلسوف الدانماركي كان محقاً تماماً. فبعيداً عن كون الناس يصفونهم بالأغبياء، فإنّ المصابين بمرض صرع الفص الصدغي هم من الأذكياء والعباقرة.

ويمكن تعريف صرف الفص الصدغي TLE بأنّه مرض الإبداع والعبقرية. هناك العديد من الأشخاص المشاهير والموهوبين عبر التاريخ كانوا يعانون من صرع الفص الصدغي وقد قيل أنهم يرجعةن الفضل في عبقريتهم وإبداعهم إلى هذا المرض. وهناك حوالي خمس إى عشرة أشخاص من بين 1000 شخص يعانون من صرع الفص الصدغي. لكن ليسوا جميعهم من العباقرة والمشاهير بالتأكيد.

قام الطبيب والبروفيسور وعالم الأعصاب من كلية الطب بجامعة هارفرد ومؤلّف العديد من الكتب عن مرض الصرع، ستيفن شاختر بجمع قائمة عن أشخاص متميّزين ومشاهير في التاريخ من المحتمل أنّهم كانوا يعانون من صرع الفص الصدغي. وتشتمل هذه القائمة على أسماء فلاسفة، كتّاب، زعماء وقادة على مستوى العالم، شخصيات دينية هامّة ومحورية، رسّامين، شعراء، مؤلّفين موسيقيين، ممثلين، وشخصيات مشهورة أخرى.

يكتب شاختر قائلاً: ((كان القدماء يعتقدون أنّ النوبات الصرعية عبارة عن أنفس شريرة أو شياطين تغزو جسد المريض. وكان الكهنة يحاولون معالجة المرضى بالصرع عن طريق إخراج الشياطين منهم باستخدام السحر والتعاويذ والصلوات. لكن في المقابل كان هناك الكثيرون ممّن تصدّوا لهذه الخرافة من القدماء وأوّلهم الطبيب الهندي أتريا ومن بعده أبوقراط اليوناني، فكلاهما عرّف الوبات على أنّها خلل في عمل الدماغ وليس ظاهرة غيبية أو شيطانية)). ثم يتابع قائلاً ((النوبات الصرعية تتميّز بقوّة ورمزية كبيرين عبر التاريخ، إذ قبل سابقاً أنّها لها علاقة تربطها مع الإبداع أو القدرات القيادية الفائقة. لطالما شعر الباحثون والعلماء بالإعجاب والذهول من الدليل القائل بأنّ أهمّ الرسل والأنبياء البارزين وغيرهم من القديسين والزعماء الدينيين، والسياسيين، والفلاسفة، والعديد من الذين حققوا مقداراً من العظمة والشهرة في مجال الفنون والعلوم، كانوا يعانون من الصرع))[212].

---

[211] www.utas.edu.au/docs/humsoc/kierkegaard/docs/Kierkepilepsy.pdf

[212] أشخاص مشهورون مصابون بداء الصرع
Epilepsy.com, “Famous People with Epilepsy”, at http://www.epilepsy.com/epilepsy/famous.html, Topic Editor: Steven C. Schachter, M.D., Last Reviewed 12/15/06, accessed June 21, 2007

أرسطو طاليس الذي كان أول من ربط بين الصرع والعبقرية، زعم أنّ سقراط نفسه كان مصاباً بنفس الداء. وقد أشار شاختر بأنّ الدكتور جيروم إنغِل، أستاذ علم الأعصاب بكلية الطب في جامعة كاليفورنيا، يعتبر الرابطة المشتركة بين الصرع والعبقرية على أنّه مجرّد صدفة بحتة[213].

والحال يتابع شاختر قائلاً: ((إلا أنّ آخرون لا يوافقون جيروم رأيه، قائلين أنّهم وجدوا رابطة ما بين الصرع والموهبة عند بعض الناس. تقول إيف لابلانت في كتابها Seized، أنّ النشاط الدماغي الغريب وغير الطبيعي الذي يطرأ في منطقة الفص الصدغي (نشاط مركّب جزئي) يلعب دوراً في عملية التفكير الإبداعي وصناعة الفن. يقول الدكتور وعالم النفس العصبي بول سباير أنه "في بعض الأحيان فإنّ نفس العوامل التي تسبّب الصرع تنتج الوهبة. فإذا خرّبت منطقة معيّنة [من الدماغ] خلال مرحلة مبكّرة من الحياة، فهناك فرصة كبيرة بأن تتطوّر المنطقة المطابقة لها في الجزء الآخر من الدماغ))[214].

هذه نظرية مثيرة للاهتمام. فإذا كان سباير محقاً، فليس صرع الفص الصدغي هو ما ينتج عبقرية وموهبة، بل ردّة فعل الدواغ واستجابته للتعويض عن الأضرار.

نورد هنا لائحة قصيرة بأسماء بعض العباقرة الذين يعتقد شاختر بأنّهم كانوا يعانون من نوبات صرع:

_**هارييت توبمان:** المرأة الإفريقية التي قادت المئات من أتباعها العبيد من الجنوب الأمريكي إلى الحرية في كندا. فقد باتت تعرف بـأنّها "موسى" شعبها.
_**القديس بولس:** أعظم مبشّر ومروّج للديانة المسيحية، فمن دونه على الأرجح ما كانت المسيحية لتصبح ديانة عالمية.
_**جوان آرك:** ابنة أحد المزارعين، كانت فتاة أمية جاهلة من إحدى القرى النائية في فرنسا القروسطية، غيّرت مجرى التاريخ من خلال انتصاراتها العسكرية الهائلة. فمنذ عمر الثالثة عشر اختبرت جوان لحظات انتشائية رأت فيها وميض من الأنوار، وسمعت أصوات القديسين وشاهدت الملائكة.
_**ألفرد نوبل:** عالم الكيمياء السويدي ورجل الصناعة الشهير الذي اخترع الديناميت وموّل جائزة نوبل.
_**دانتي ألغييري:** مؤلّف الكوميديا الإلهية المشهورة.
_**السير والتر سكوت:** أحد أشهر الشخصيات الأدبية خالا الحقبة الرومنطيقية، القرن الثامن عشر.
_**جوناثان سويفت:** هجّاء إنكليزي، ومؤلّف رواية "رحلات غاليفر".
_**لورد بايرون، بيرسي شيللي، وألفرِد لورد تينيسون:** ثلاثة من أعظم الشعراء الرومنطيقيين الإنكليز.
_**تشارلز ديكنز:** كاتب من العصر الفكتوري ألّف مجموعة من الكتب والروايات التي تصنّف أنّها من روائع الأدب الكلاسيكي العالمي مثل "كريسماس كارول" و"أوليفر تويست".
_**لويس كارول:** مؤلّف رواية "أليس في بلا العجائب"، وقد تناول الكثيرون نوباته الصرعية وكتبوا عنها. نفس الشعور الذي يطلق مغامرات أليس: السقوط في ثقب أو حفرة وهو شعور نموذجي ومألوف لدى أغلب المصابين بالنوبات.

---

[213] د.جيروم إنغِل: النوبات والصرع، 1989.
Dr. Jerome Engel, Seizures and Epilepsy:, F. A. Davis Co., Philadelphia, 1989

[214] http://www.epilepsy.com/epilepsy/famous.html

_**فيودور دستويفسكي:** الروائي الروسي العظيم، مؤلّف العديد من روائع الأدب العالمي مثل رواية "الأخوة كارامازوف" و"الجريمة والعقاب"، والذي يعتبر من قبل الكثير من النقّاد بأنه أوصل الرواية الغربية إلى القمّة.

ربما اختبر محمد نوبته الأولى عندما كان في الخامسة من العمر. دستويفسكي مرّ بتجربته الأولى في عمر التاسعة. وبعد هدأة استمرّت حتى سن الخامسة والعشرين، بدأت تنتابه نوبات صرع كل عدّة أيام أو شهور، متراوحة ما بين فترات زمنية سهلة وصعبة.

كانت هالاته النتشائية التي تحدث قبل ثواني من نوباته الكبرى كانت لحظات من السعادة المتعالية، والتي تغيّرت لاحقاً إلى شعور طاغٍ ومؤلم بالرعب. مانت تجاربه مماثلة للتجارب التي كان يمرّ به محمد، حيث كان الأخير يمرّ بتجارب مؤلة ومرعبة مليئة بمشاهد ورؤى عن الجحيم وعذاب النار، مليئة بالخوف والرعب والعذاب.
هنا نورد مثالين فقط عمّا رآه محمد خلال رؤياه:
{فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج: 19-22]
{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} [المؤمنون: 103-104]

اختبر دستويفسكي أيضاً رؤيا نور ساطع يعمي الأبصار. ثمّ كان يبكي ويفقد وعيه لثانية أو ثانيتين. في بعض الأحيان كانت الشحنة الكهربائية الخلل تشمل دماغه بالكامل، مولّدة نوبة تشنّجية ارتعاشية ثانوية (نوبة صرع). بعد ذلك لم يكن قادراً على تذكر الأحداث والأحاديث التي كانت تدور أثناء النوبة، وكان يشعر بالكآبة أغلب الأحيان، تملأوه مشاعر الاكتئاب والذنب لأيام بعد ذلك.

_**الكونت ليو تولستوي:** الكاتب والروائي الروسي الشهير في القرن التاسع عشر مؤلّف رائعتا "آنا كارنينا" و"الحرب والسلم"، كان يعاني من الصرع أيضاً.
_**غوستاف فلوبير:** عَلَم آخر من أعلام الأدب. عبقري الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر الذي ألّف التحفة الأدبية الرائعة "مدام بوفاري" و"تعليم عاطفي". حسب شاختر: ((كانت نوبات فلوبير الاعتيادية تبدأ بمشاعر التهديد بالفناء، صم بعد ذلك كان يشعر بعدم الأمان والضآلة، وكأنّه كان ينتقل إلى بعد آخر. كتب في إحدى المرات واصفاً نوباته بأنّها كانت "أشبه بدوّامة من الأفكار والصور التي تعصف داخل دماغي القاحل، وكان وعيي خلالها أشبه بالوعاء الذي يغرق في قلب ذلك الإعصار". كان يشتكي قائلاً بأنّه كان يشعر باندفا ع قويّ للذكريات، وكان يرى رؤى وهلوسات نارية، وكان يرغي من فمه، وكانت يده اليمنى تتحرك بطريقة تلقائية، يسقط في غيبوبة لمدّة عشر دقائق، ثم يتقيّأ.
_**أغاتا كريستي:** الكاتبة البريطانية اللامعة التي كتبت روائع القصص البوليسية والغموض، وكانت تعاني من الصرع.
_**ترومان كابوت:** الكاتب الأمريكي الذي ألّف رواية "بدمٍ بارد" و"فطور في بيت ستيفاني".
_**جورج فريدريك هاندِل:** الموسيقار الشهير ومؤلّف مقطوعة "المسيح".
_**نيكولو باغانيني:** أحد أشهر عازفي الكمان.
_**بيتر تشايكوفسكي:** الموسيقار الروسي اللامع، ومؤلّف أشهر عروض الباليه "كالجميلة النائمة" و"كسّارة البندق".
_**لودفيغ فان بيتهوفن:** أحد أشهر عمالقة الموسيقى الكلاسيكية على الإطلاق.

يقول شاختر: ((هذه الأمثلة هي غيض من فيض، فهناك الكثير من المشاهير والعباقرة الذين عانوا من الصرع قام المؤرّخون بذكرهم)). في الحقيقة القائمة التي تورد الأشخاص الذين يعتقد أنّهم كانوا مصابين بمرض الصرع طويلة جداً. أمّا محمد فلم يتمّ تصنيفه ضمن مجموعة الأشرار. فمقدرته التخيلية، اكتئابه، أفكاره الانتحارية، حساسيته، تديّنه واهتمامه بالأمور الدينية، رؤياه عن يوم القيامة والعذاب في الآخرة، هلوساته البصرية والسمعية، والعديد من سماته وخصائصه الجسدية والنفسية، كلها يمكن تفسيرها وتعليلها في إطار صرع الفص الصدغي.

والحال أنّ مرض الصرع لا يفسّر قساوة محمد ووحشيته وافتقاره للرحمة والشفقة، وعمليات القتل الجماعي التي أمر بها وإصراره عليها. فهذه الأمور كانت نتيجة نرجسيته الباثولوجية. كان ذلك المزيج من اضراباته الشخصية والعقلية هو الذي جعل منه الظاهرة التي كان عليها. كان محمد يضمر أفكاراً عن الفخامة والقدرة الكلية المطلقة. أمّا رؤاه الصرعية فأكّدت له ورسّخت جنون عظمته ومنحته تأكيداً بأنّه كان النبي المختار من الله. كما لو أنّ ذلك لم يكن كافياً، فقد تزوّج من امرأة اعتمادية كانت تسعى وراء عظمتها في إراضاء زوجها والاحتفاء به كنبي.

كان محمد مقتنعاً برسالته النبوية. فقد كانت ثقته الزائدة بالنفس هي التي ألهمت أولئك الذين كانوا على مقربة منه وأكّدت ظنونهم وثقتهم فيه. وهذا لا يعني أنّ جميع الآيات في القرآن قد "أوحيت" إليه خلال غيبوباته أو نوباته الصرعية. على الأرجح توقفت النوبات خلال السنوات المتقدّمة من عمره. إلا أنّه ظلّ مقتنعاً بنبوّته وعظمته، لذا استمرّ في تلاوه آياته كلّما تطلّب الموقف منه ذلك. وبوصفه نرجسياً، كان يلاقي كلّ التأييد والموافقة من أتباعه. من الصعب معرفة من كان يخدع الآخر. فمحمد مان مقتنعاً بمزاعمه وصحّة ادّعاءاته _مع أنّه كان يكذب بطلاقه، ويلفّق الآيات كلّما احتاج إليها_ ومع ذلك، عندما آمن الناس به وصدّقوا ادّعاءاته، كان ذلك بمثابة تأييد إضافي له وترسيخ لقناعاته حول نفسه. وكنتيجة لذلك، كان يعتقد أنّه ملفوف بالعناية الإلهية ومخوّلٌ لإنزال العقاب على أولئك الذين يخالفونه الرأي. كان صوت الله وكلمته السارية على الأرض، وأي معارضة له معناها معارضة كلام الله مباشرةً. كان يشعر أنّه مخوّل لكي يكذب. وإن كذب، فهذا يعني بالنسبة له أنّه يكذب من أجل قضيّة خيّرة، وبذلك فكذبه مبرّر. وعندما غزا وسبا وارتكب أبشع المجازر بأناس أبرياء، فعل ذلك بضمير مرتاح ودمٍ ربارد. أمّا الغاية فكانت مهيبة لدرجة أنه اعتبر جميع الوسائل التي تبرّرها وتقود إليها مشروعة. كان مقتنعاً تماماً بهلوساته لدرجة أنّه شعر بضرورة قتل أي شخص يقف في طريقه. والآيات القرآنية-المحمدية التالية خير دليل على ذلك:
{وَمَنْ يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ} [النساء: 14]
{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثًا} [النساء: 42]
{وَمَنْ يَعْصِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الجن: 23]

نهاية الكتاب